

سلسلة تراث الأزهريين

الزبدة الرائقة
في شرح البردة الفائقة

بردة الإمام البوصيري، بشرح شيخ الإسلام القاضي

زكريا الأنصاري

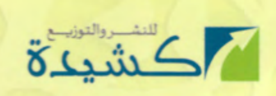
مع نص البردة بخط شيخ الخطاطين في زمانه

ابن الصائغ القاهري

تقديم وتحقيق

الدكتور/ عطية مصطفى

كلية أصول الدين - جامعة الأزهر





بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الناشر

١ - سلسلة «تراث الأزهريين»

يشهد التاريخ على أن الاعتناء بتراث الأسلاف دليل على حكمة الأمم والشعوب، فالأمم التي تحرص على تراث أسلافها، مستلهمة ما فيه من إيجابيات، تعينها على المضي قدما في معترك الحياة، ومعتبرة بما فيه من هفوات، تضعها نصب عينيها كي لا تزل بها الأقدام، هي أمم رشيدة عالية الهمة.

وقد احتفت أمتنا الإسلامية العربية -عبر مختلف عصورها- بتراثها أيَّما احتفاء، فاعتنى كل جيل بتراث الأجيال التي سبقته، واتخذ ذلك الاعتناءُ مختلفَ الصور والأشكال، دراسة وتدريسا، ومعارضة ونقدا، وشرحا ونظما، ورواية وإجازة، وتحقيقا ونشرا، إلى غير ذلك من صور الاعتناء والاحتفاء بكنوز ونفائس تراثنا الإسلامي العربي.

وعلى هذا الدرب المبارك تواصل «كشيدة[١] للنشر والتوزيع» مسيرة نشر الأعمال التراثية، وهي المسيرة التي بدأتها أوائل العام الماضي (١٤٣٢ هـ) بسلسلة «تراث الأزهريين» التي لاقت من القبول والاستحسان ما يجعلنا نحمد الله عز وجل أن يسر لنا سلوك هذا الدرب.

(١) كلمة «كشيده» هي من المصطلحات المستخدمة في فنون الخط العربي، وتعني الصلة أو الرابطة أو الامتداد، وهي كلمة فارسية الأصل.



إن سلسلة «تراث الأزهريين» والتي تُعنى بنشر الأعمال البارزة لشيوخ الأزهر وعلمائه، تهدُفُ على وجه الخصوص إلى ما يلي:

١- الإسهام في إعادة الاعتبار إلى تلك المؤسسة الإسلامية العريقة، وبيان عُلوِّ شأنها وشأنِ علمائها وشيوخها، وذلك من خلال تعريف القارئ والمثقف العربي بأعلامِ علماء وشيوخ الأزهر، وبما قدَّموه للإسلام والبشرية من نتاجٍ فكري يُمثِّل الصورة الحقيقية الناصعةَ للإسلام، بسماحته وشموليته وموافقته للفطرة البشرية.

٢- تصحيحِ الكثير من المفاهيم المغلوطة التي انتشرت في عصرنا الحاضر نتيجةَ تهميشِ دور الأزهر وعلمائه في حياتنا المعاصرة، وذلك من خلال نشر الفهم السليم لحقائق الإسلام، كما تلقاه علماءُ الأزهر شيخاً عن شيخٍ في سلسلةٍ مُباركةٍ من السَنَدِ تمتدُ حتى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلَّم وسلفِنا الصالح.

٣- التأكيد على أهمية منهجية التلقي والإجازة، تلقي التلميذ عن الشيخ وإجازة الشيخ للتلميذ، في انتقال الفهم الصحيح للإسلام من جيل إلى جيل، وهي المنهجية المتبعة في الأزهر، والتي أفرزت أجيالاً من العلماء أثرت المكتبة الإسلامية بمؤلفاتهم في شتى علوم الإسلام.

إن كثيرا مما نعايشه في واقعنا المعاصر من خلط وتخبط في المفاهيم الدينية يرجع إلى تخلي قطاع عريض من المتصدين للدعوة عن هذه المنهجية، فأضروا أكثر مما نفعوا. أما علماء الأزهر فقد توارثوا علمهم، وتشكلت ملكاتهم الفقهية على أسس سليمة متوارثة عن سلفنا الصالح، مما يجعل تراثهم انعكاسا صادقا للفهم الصحيح للإسلام.

إن هذه المنهجية العلمية المُباركة هي التي جعلت الأزهرَ الشريفَ قلعةً من أعظم قلاع الإسلام، يلتجئ إليها المسلمون من شتى بقاع الأرض طلبا للسلامة في فهم الدين.

يقول الإمامُ الأكبر فضيلة الشيخ عبد الحليم محمود عن الأزهر ودوره ورسالته:

«عمل الأزهر هو تبليغُ الرسالة الإسلامية، وتبليغُ الرسالةِ الإسلامية هو أرفعُ منزلةٍ وأشرفُ وظيفةٍ لأنها رسالةُ الأنبياء ...

وقد انتشر أبناؤه في ربوع الأمة الإسلامية كالنُّجوم، روّادا يحملون العلم إلى كل صَقع بعيد، فوسَّع الله بهم رقعةَ الثقافة الإسلامية، وأنار بجهودهم آفاقا أضاءوها بسنا الحنيفية السمحاء ...

وقد عرف التاريخُ أن رجالَ الأزهر وقد حملوا هذه الأمانة، رسالةَ الإسلام طوال ألف عام، هم سَدَنةُ قلعة، وحُماةُ عرينٍ، وجُندُ حصنٍ، تنبعث منهم الصيحةُ الحقيقية المؤمنةُ التي تُظهِر الإسلامَ على حقيقته، وتعرضه عرضا ذاتيا من مبادئه وجوهره الأصيل ...

فحفظ الأزهرُ بذلك رسالته، وحقَّق وظيفته، فبات مؤكدا عند التاريخ والأمة أن الأزهرَ هو الأمينُ على هذا الدين، والمدافعُ عن ذاتيته، والسادنُ لكرامة شريعته.

ولقد عقد اللهُ القلوبَ على محبته، وعلَّم الشعوبَ التوجُّهَ إليه، وأذهب عن أهلِه الحَزَن، وبارك فيه وإن تقلَّبت به السُّنون»[1].

---

(١) من مقدمة فضيلته للطبعة الأولى لكتاب (الأزهر في ألف عام) للدكتور أحمد محمد عوف.

ويقول فضيلة الشيخ صالح الجعفري رضي الله عنه:

«الأزهرُ هو الأزهر؛ شرعٌ إلهي وميراثٌ محمدي، محفوظ بحفظ ما فيه، لأنه حوى القرآن وما فيه من فنون ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[1]،

تُرفرف فوقَه روحُ صاحب السنة، إذ فيه سنَّتُه النبوية وعلماءُ أمته، الذين هم ورثته وخلفاؤه، فهو مكان نظر الله تعالى وعنايته، وموضع الذين استشهد بهم على وحدانيته ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ وَٱلْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ﴾[2] ...

وجعل اللهُ الأزهرَ موضع التفقه في الدين، وإليه الهجرة والنَّفْرة، وبه الإنذار للشعوب والأمم، فهو أزهرُ الأمة المحمدية على اختلافِ ألسنتهم وألوانهم ﴿فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾[3]، وهو مكان لزيادة العلم التي أرشد الله تعالى إليها نبيَّه صلى الله عليه وسلم بقوله: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً﴾[4]، وهو مكان الحسنى وزيادة ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾[5]، فالحسنى هي العلم، والزيادة هي الزيادة منه والتفقه فيه والتبحر في معانيه ...

ولا يخلو شعب من الشعوب إلا وفيه أشباله أُسودٌ، عمائمُهم تيجانُهم، وعُدتهم إيمانُهم، وما من خيرٍ إلا وهم قادته والداعون إليه، ففي الجهاد هم السابقون، وفي الآراء هم المفكرون، ارتضاهم الله حملةً لدينه، وأئمة لعباده، ومرشدين لخلقه، فهم مصابيح الأمم، وأقمار الشعوب، وبهم إصلاح المجتمع ...

---

(١) سورة الحجر - آية ٩
(٢) سورة آل عمران - آية ١٨
(٣) سورة التوبة - آية ١٢٢
(٤) سورة طه - الآية ١١٤
(٥) سورة يونس - الآية ٢٦

لا يضل شعبٌ وفيه منهم عالم، فهم الزائرون على المنابر، وهم الخطباء في النوادي والكاتبون في الصحف والمجلات. أقوالهم كالأسنة تقطع كلَّ قول ضال، وتزجرُ كل منافق، وتهدي كل حائر، وتبين الغوامض من الأمور، والمشكلات من المسائل»[1].

وفي تحية الأزهر، يقول أمير الشعراء أحمد شوقي:

قُمْ في فَمِ الدُّنيا وحيِّ الأزهَرا
وانثُر على سمعِ الزمانِ الجَوهرا

واجعلْ مكان الدُّرِّ إن فصّلتَه
في مدحِه خرزَ السمـــاءِ النيِّرا

واذكُرهُ بعد المسجدين مُعظِّما
لمســـــاجدِ الله الثلاثِ مُكبِّرا

واخْشعْ ملياً واقضِ حقَّ أئمةٍ
طلعوا به زَهراً ومــــاجُوا أبحُرا

كانوا أجلَّ من الملوك جلالةً
وأعزَّ سُلطــــاناً وأفخمَ مَنظرا

إن ما خلَّفه علماء الأزهر وشيوخه من تراث فكري يتمثل في الآلاف من الكتب والرسائل والفتاوى، في شتى علوم الدين، هو أعظم وأكبر من أن تحيط به سلسلة من المطبوعات مهما كان حجمها.

(١) كلمة موجزة عن الأزهر – مقدمة كتاب (منبر الأزهر يترجم عن نعمة الله على آل جعفر).

لذلك فإن سلسلة «تراث الأزهريين»، لا تستهدف استقصاء ذلك التراث الثري الخصب بقدر ما تستهدف التعريف بنماذج متنوعة منه، بما يتيح تحقيق ما ترجوه هذه السلسلة من الأهداف آنفة الذكر.

وفي هذه السلسلة وفي غيرها من إصدارت التراث، تلتزم «كشيدة للنشر والتوزيع» بمنهجية نشر مسئولة، تستهدف خدمة النص وتسهيل قراءته وتعظيم الاستفادة منه، وذلك من خلال ما يلي:

أولا: توثيق المخطوطة:

لم تطبع هذه الرسالة حتى الآن على حد علمنا، وقد اعتمدنا في إخراجها على مخطوطتين محفوظتين في مكتبة الأزهر الشريف، تحمل المخطوطة الأولى منها رقم ٧٦٤ع، ويشير تاريخ نسخها إلى الحادي عشر من ذي الحجة سنة ١١٥٥ هـ، أما المخطوطة الثانية فتحمل رقم ٥٨٤٤ع، ويشير تاريخ نسخها إلى السادس عشر من رمضان سنة ١٠٩٤ هـ.

ثانيا: تقديم النص:

١- التعريف بمؤلفه شيخ الإسلام القاضي زكريا الأنصاري الشافعي، وقد اعتمدنا بصورة أساسية في التعريف بفضيلته على ترجمته الواردة على الموقع الإلكتروني لدار الإفتاء المصرية.

٢- التعريف بناظم البردة الإمام البوصيري، وقد اعتمدنا في التعريف به على ما ورد من أخبار عنه في العديد من المصادر مثل «الأعلام» للزركلي، و«حسن المحاضرة» للسيوطي، وغيرها.

٣- مقدمة عن المديح النبوي وفضله، ومديح الأولين لرسول الله صلى الله



عليه وآله وسلم، ثم مكانة البردة بين قصائد المديح، وتفاعل المسلمين معها في مختلف العصور، وأثرها في الشعر العربي.

ثالثا: التخريج والتعليق:

١- تخريج آي الذكر الحكيم، وتخريج حديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما أمكن التخريج. وقد كان العلامة القاضي زكريا الأنصاري يخرج أحيانا بعض الأحاديث أثناء الشرح، فقمنا بإثبات تخريجات فضيلته في الهوامش مميزة بخط تحتي.

٢- توضيح ما يرد في النص من كلمات أو إشارات غامضة، قد يستعصي فهمها.

رابعا: العناية بالإخراج الطباعي:

١- العناية بضبط الكلمات وإضافة علامات الترقيم، بما يتيح صحة وسهولة قراءة النص.

٢- تنسيق العناوين ومواضع النص ذات الأهمية الخاصة بصورة مختلفة عن تنسيق متن النص، بما يتيح سهولة التعرف عليها، وقد اشتمل شرح الشيخ الأنصاري على الكثير من الإشارات اللغوية، التي قمنا بإثباتها بخط رمادي أصغر قليلا من بقية النص، بما يتيح للقارئ الذي يريد التعرف بصورة أولية على معاني الأبيات أن يتجاوز تلك الإشارات في قراءته الأولى للنص.

خامسا: التقسيم والفهارس:

١- العناية بتقسيم النص إلى فقرات تعكس ما فيه من أفكار رئيسة، وترقيم أو عنونة تلك الفقرات أحيانا بما يتيح الرجوع إليها.

إن «كشيدة للنشر والتوزيع» وهي تُقدم هذه السلسلة، سلسلة تراث الأزهريين، لتتوجه إلى الله عز وجل بأن يتقبل هذا العمل، وأن يُهيئَ له من القبول لدى القارئ ما يليقُ بمكانة الأزهر وعلمائه، وأن يُعين على نشر المزيد من تراث علماء الأزهر الأجِلَّاء.

*****

٢- التعريف بشارح البُردة
شيخ الإسلام زكريا الأنصاري[1]

اسمه ونشأته:

هو الشيخ الإمام، شيخ مشايخ الإسلام قاضي القضاة زين الدين أبو يحيى زكريا بن محمد بن زكريا الأنصاري السُنَيكي، نسبة إلى سُنَيكة من قرى محافظة الشرقية بمصر، الأزهري، الشافعي. ولد ببلده سنيكة سنة ٨٢٤ هـ تقريبا (الموافق ١٤٢١ م).

نشأ الشيخ -رحمه الله- في بلده سنيكة، فابتدأ بحفظ القرآن ومبادئ الفقه ثم توجه إلى الجامع الأزهر سنة (٨٤١ هـ) فحفظ المتون كالمنهاج والألفية والشاطبية وبعض التسهيل وشطر ألفية الحديث وغيرها، ثم لم يلبث أن رجع إلى بلدته فمكث بها مدة، ثم عاود القدوم إلى الأزهر فدرس العلوم كلها وتوسع فيها.

شيوخه:

أخذ شيخ الإسلام زكريا على عدد كبير من الشيوخ نذكر منهم:

١- الإمام الرُحَلة زين الدين أبو النعيم رضوان بن محمد بن يوسف العقبي، الشافعي (ت ٨٥٢ هـ) قرأ عليه القرآن كله بقراءات الأئمة السبعة، كما

(١) ترجمة المؤلف مستقاة بتصرف من ترجمته المنشورة على الموقع الإلكتروني لدار الإفتاء المصرية.

قرأ عليه الشاطبية والرائية، وسمع عليه جزءًا من التيسير للداني، ومسند الإمام الشافعي، وصحيح مسلم، والسنن الصغرى للنسائي، وسمع عليه شرح معاني الآثار للطحاوي وآداب البحث، وشرح الألفية للعراقي.

٢- الإمام المقرئ نور الدين علي بن محمد بن الإمام فخر الدين عثمان ابن عبد الرحمن بن عثمان المخزومي البلبيسي ثم القاهري الشافعي والمعروف بإمام الأزهر (٧٩٩-٨٦٤ هـ) قرأ عليه بالسبعة كذلك.

٣- شيخ الإسلام شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن محمد بن علي بن أحمد الكناني العسقلاني الأصل، المصري المشهور بابن حجر العسقلاني، (ت ٨٥٢ هـ) أخذ عنه الحديث، وقرأ عليه السيرة النبوية لابن سيد الناس، وشرح الألفية للعراقي وأكثر صحيح البخاري وسنن ابن ماجه حيث مات ابن حجر قبل إكماله، وسمع عليه أشياء كثيرة في العربية، والأدب، والأصول، والمعقولات، وكتب له في بعض إجازاته: [وأذنت له أن يقرأ القرآن عَلَى الوجه الذي تلقَّاه، ويقدر الفقه على النمط الذي نص عليه الإمام وارتضاه، والله المسؤول أن يجعلني وإياه، ممن يرجوه ويخشاه إلى أن نلقاه].

٥- زين الدين أبو ذرٍّ عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الزركشي القاهري الحنبلي، المتفرد برواية «صحيح مسلم» بعلو (ت ٨٤٦ هـ)، أخذ عنه «صحيح مسلم».

٦- شرف الدين أبو الفتح محمد بن زين الدين أبي بكر بن الحسين القرشي العثماني المراغي القاهري الأصل المدني الشَّافِعي (ت ٨٥٩ هـ). قرأ عليه في الحديث، والفقه، وغيرهما لما ورد المدينة في طريق حجه.

٧- جلال الدين محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم الأنصاري المحلي الأصل القاهري الشَّافِعي (ت ٨٦٤ هـ).

٨- العلامة شهاب الدين أبو العباس أحمد بن رجب بن طَيْبُغَا القاهري الشَّافِعي المعروف بابن المجدي (ت ٨٥٠ هـ)، أخذ عنه الفقه، والنحو، وعلم الهيئة، والهندسة، والميقات، والفرائض، والحساب، والجبر، والمقابلة.

٩- القاضي عز الدين عبد الرحيم بن المؤرخ ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم المصري الحنفي، المعروف بابن الفرات (ت ٨٥١ هـ)، سمع عليه العديد من كتب الحديث.

١٠- العلامة علم الدين صالح بن شيخ الإسلام سراج الدين عمر بن رسلان البلقيني القاهري (ت ٨٦٨ هـ).

١١- الشيخ برهان الدين أبي إسحاق الصالحي قرأ عليه كتاب «التبيان في آداب حملة القرآن» للنووي.

١٢- الإمام كمال الدين محمد بن عبد الواحد بن عبد الحميد الحنفي المعروف بالكمال بن الهمام (ت ٨٦١ هـ).

كما أخذ طريق التصوف والذكر عن العديد من العلماء، وأذن له جماعة من شيوخه وغيرهم بالتدريس والإفتاء، وأجازه خلائق يزيدون على مائة وخمسين نفْسًا ذكرهم في ثَبَته[1].

صفاته وأخلاقه:

كان شيخ الإسلام زكريا مضرب المثل في حسن الخلق، رجاعًا إلى الخير، منقادًا للمعروف ولو من الأداني، منصفًا لمن حوله ولو صغيراً، غير متكثر بالعلوم والمشيخة، ضابطًا لأوقاته غير مضيع لعمره، سليمًا من العوارض والعواطل، وكان -رضي الله تعالى عنه- غاية في الانهماك في

(١) الثَّبَت هو الصحيفة يُثبَت فيها الأدلة، وثَبَتُ المُحدِّث: ما يَجمعُ فيه مروياته وأسماءَ شيوخه.

طلب العلم، بارعًا في سائر العلوم الشرعية وآلاتها حديثًا، وتفسيراً، وفقهًا، وأصولا، وعربية، وأدبًا، ومعقولا، ومنقولا، فأقبلت عليه الطلبة للاشتغال عليه، وعُمِّر حتى رأى تلاميذه وتلاميذ تلاميذه شيوخ الإسلام، وقرت عينه بهم في محافل العلم ومجالس الأحكام، وقُصِد بالرحلة إليه من الحجاز والشام.

وقد عدَّه جملة من العلماء المجدد على رأس القرن التاسع لشهرة الانتفاع به وبتصانيفه. قال السيوطي: «لزم الجد والاجتهاد في القلم والعلم والعمل، وأقبل على نفع الناس إقراءً وإفتاءً وتصنيفًا، مع الدين المتين، وترك ما لا يعنيه، وشدة التواضع ولين الجانب، وضبط اللسان والسكوت».

وقال ابن حجر الهيتمي في كلامه عن شيوخه: «وقدَّمت شيخنا زكريا لأنه أجلُّ من وقع عليه بصري من العلماء العاملين والأئمة الوارثين، وأعلى من عنه رويت من الفقهاء والحكماء المسندين، فهو عمدة العلماء الأعلام، وحجة الله على الأنام، حامل لواء مذهب الشَّافِعي على كاهله، ومحرر مشكلاته وكاشف عويصاته في بكرته وأصائله، ملحق الأحفاد بالأجداد، المتفرد في زمنه بعلو الإسناد، كيف ولم يوجد في عصره إلا من أخذ عنه مشافهة أو بواسطة أو بوسائط متعددة، بل وقع لبعضهم أنه أخذ عنه مشافهة تارة، وعن غيره ممَّن بينه وبينه نحو سبع وسائط تارة أخرى، وهذا لا نظير له في أحد من عصره، فنعم هذا التميز الذي هو عند الأئمة أولى وأحرى؛ لأنَّه حاز به سعة التلامذة والأتباع، وكثرة الآخذين عنه ودوام الانتفاع».

وكان الشيخ مع ما كان عليه من الاجتهاد في العلم اشتغالا، وإفتاءً، وتصنيفًا، ومع ما كان عليه من مباشرة القضاء، ومهمات الأمور، وكثرة إقبال الدنيا؛ لا يكاد يفتر عن الطاعة ليلا ونهاراً، ولا يشتغل بما لا يعنيه، يصلي النوافل من قيام مع كبر سنه وبلوغه مائة سنة وأكثر، ويقول: «لا أعود نفسي

الكسل»، حتى في حال مرضه كان يصلي النوافل قائمًا، وهو يميل يمينًا وشمالا لا يتمالك أن يقف بغير ميل للكبر والمرض، فقيل له في ذلك. فقال: «يا ولدي النفس من شأنها الكسل، وأخاف أن تغلبني، وأختم عمري بذلك» وكان إذا أطال عليه أحد في الكلام يقول له: عجِّل قد ضيعت علينا الزمان، وكان إذا أصلح القارئ بين يديه كلمة في الكتاب الذي يقرأه ونحوه يشتغل بالذكر بصوت خفي قائلا: الله الله، لا يفتر عن ذلك حتى يفرغ.

وكان قليل الأكل لا يزيد على ثلث رغيف، ولا يأكل إلا من خبز خانقاه[1] سعيد السعداء، ويقول؛ إنما أخص خبزها بالأكل؛ لأن صاحبها كان من الملوك الصالحين، وذكر أنه عمَّرها بإشارة النبي صلى الله عليه وسلم، وكان -رضي الله تعالى عنه- كثير الصدقة مع إخفائها، وكان له جماعة يرتب لهم من صدقته ما يكفيهم إلى يوم، وإلى جمعة، وإلى شهر، وكان يبالغ في إخفاء ذلك حتى كان غالب الناس يعتقدون في الشيخ قلة الصدقة.

ما تولاه من المناصب:

١- التدريس بمقام الإمام الشَّافعي والنظر على أوقافه[2]، ولم يكن بمصر أرفع منصبًا من هذا التدريس، ثم انضم إليه النظر على القرافة كلها.

٢- مشيخة خانقاه الصوفية.

---

(١) الخانقاه هي المكان الذي ينقطع فيه الصوفية للعبادة، واقتضت وظيفتها أن يكون لها تخطيط خاص، فهي تجمع بين تخطيط المسجد والمدرسة إضافة إلى الغرف التي ينقطع فيها الصوفية للعبادة والتي تسمى بالخلاوي، وكان السلاطين والأمراء يخصصون الأوقاف للإنفاق على الخانقوات لما تؤديه من وظائف دينية وعلمية وخيرية، وتعد خانقاه سعيد السعداء هي أول خانقاه أنشأت في مصر.

(٢) نظارة الأوقاف هي السلطة التي تخول صاحبها في حفظ الأعيان الموقوفة وإدارة شئونها واستغلالها استغلالاً نافعا وإجراء العمارة اللازمة لها وصرف غلاتها إلى المستحقين. ويُسمى من تثبت له هذه السلطة المتولي أو الناظر أو القيِّم.

٣- مشيخة مدرسة الجمالية.

٤- منصب قاضي القضاة، وكان ذلك بعد امتناع طويل في سلطنة خشقدم ولما ولي السلطنة قايتباي أصر على توليه قضاء القضاة فقبل، وكان ذلك في سنة ٨٨٦ هـ، واستمر مدة ولاية قايتباي وبعدها.

تلاميذه:

تتلمذ على شيخ الإسلام زكريا من لا يحصى كثرة من الطلبة، نذكر ممن نبغ منهم:

١- الشيخ العلامة فقيه مصر شهاب الدين أحمد الرملي المنوفي المصري الأنصاري الشَّافِعي. (ت ٩٥٧ هـ).

٢- وولده العلامة شمس الدين الرملي.

٣- والشيخ العلامة الإمام مفتي الحجاز، وعالمها شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن محمد بن علي بن حجر الهيتمي السعدي الأنصاري الشَّافِعي. (ت ٩٧٣ هـ أو ٩٧٤ هـ).

٤- الإمام العلامة فخر الدين عثمان السنباطي الشَّافِعي. (ت ٩٣٧ هـ).

٥- قاضي القضاة ولي الدين محمد بن قاضي القضاة شهاب الدين أحمد ابن محمود بن عبد الله بن محمود بن الفرفور الدِّمَشْقِي. (ت ٩٣٧ هـ).

٦- مفتي بعلبك محمد بن محمد بن علي الفصي البعلي الشَّافِعي، (ت٩٤١ هـ).

٧- الإمام العلامة المحقق الشيخ تقي الدين أبو بكر بن محمد بن يوسف القاري ثم الدمشقي الشَّافِعي. (ت ٩٤٥ هـ).

٨- الشيخ الإمام المحدث علاء الدين أبو الحسن علي بن جلال الدين محمد البكري الصديقي الشَّافِعي. (ت ٩٥٢ هـ).

٩- الإمام العلاَّمة الورع الشيخ شهاب الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم ابن محمد الأنطاكي الحلبي الحنفي، المعروف بابن حمادة. (ت ٩٥٣ هـ).

١٠- الشيخ الإمام برهان الدين إبراهيم بن العلاَّمة زين الدين حسن بن عبد الرحمن بن محمد الحلبي الشافعي، المشهور بابن العمادي. (ت٩٥٤هـ).

١١- الإمام باكثير عبد المعطي بن الشيخ حسن بن الشيخ عبد الله المكي الحضرمي الشَّافِعي. (ت ٩٨٩ هـ).

١٢- الشيخ العلامة مفتي البلاد الحلبية البدر بن السيوفي.

١٣- الشيخ العلامة بدر الدين العلائي الحنفي.

١٤- الشيخ الصالح الولي عبد الوهاب الشعراني.

مؤلفاته:

وقد رزق الشيخ -رحمه الله- جودة التأليف مع الكثرة واشتهر منها ما يلي:

١- أسنى المطالب في شرح روض الطالب، وهو شرح على روض الطالب في الفقه الشافعي لابن أبي بكر المقري اليمني والذي هو مختصر لروضة الطالبين، وقد ختم شيخ الإسلام تحقيقه بين يدي مؤلف المتن الشيخ المقري وذلك في سنة ٨٩٢ هـ.

٢- منهج الطلاب، متن في فقه الشافعية، وهو مختصر لمنهاج الطالبين للإمام النووي، وهو متن محكم متين.

٣- الغرر البهية في شرح البهجة الوردية، وهو شرحه الكبير على النظم المسمى بهجة الحاوي والمشهور بالبهجة الوردية لابن الوردي (ت ٧٤٧ هـ) الذي نظم فيه الحاوي الصغير لنجم الدين القزويني، وفرغ من نظمه سنة ٧٣٠ هـ، وقد فرغ شيخ الإسلام زكريا من تأليفه سنة ٨٦٧ هـ.

٤- تحرير تنقيح اللباب، وهو اختصار لتنقيح اللباب في الفقه، وقد شرحه العلامة زين الدين عبد الرؤوف المناوي (ت ١٠٣١ هـ).

٥- تحفة الطلاب بشرح تحرير تنقيح اللباب، وهو شرح لمختصره السابق.

٦- فتح الوهاب بشرح منهج الطلاب، وهو شرح على متنه السابق.

٧- لب الأصول، اختصره من جمع الجوامع للإمام ابن السبكي، وهو مختصر محكم متين.

٨- غاية الوصول بشرح لب الأصول، وهو شرح له على متنه السابق فرغ منه سنة ٩٠٢ هـ.

٩- فتح الرحمن بشرح لقطة العجلان وبلة الظمآن للزركشي (ت٧٩٤ هـ) في أصول الفقه.

١٠- تلخيص أسئلة القرآن وأجوبتها لأبي بكر الرازي.

١١- فتح الجليل ببيان خفي أنوار التنزيل، وهو حاشية على تفسير البيضاوي.

١٢- شرح الأربعين النووية.

١٣- الدقائق المحكمة في شرح المقدمة، شرح على المقدمة الجزرية في التجويد لشمس الدين بن الجزري (ت ٨٣٣ هـ).

١٤- تحفة الباري شرح الجامع الصحيح للبخاري، وهو شرح حافل لصحيح البخاري، طبع بالمطبعة الميمنية بالقاهرة ١٣٢٦ هـ في اثني عشر مجلدًا مع إرشاد الساري للقسطلاني.

١٥- إحكام الدلالة على تحرير الرسالة، شرح فيه الرسالة القشيرية في التصوف، وفرغ من تأليفه سنة ٨٩٣ هـ.

١٦- الأضواء البهجة في إبراز دقائق المنفرجة، وهو شرح على القصيدة المنفرجة لأبي الفضل يوسف بن محمد التوزري الشهير بابن النحوي.

١٧- الزبدة الرائقة في شرح البردة الفائقة، وهو شرح على البردة للبوصيري، وهو هذا الكتاب الذي نقدمه اليوم ضمن سلسلة تراث الأزهريين.

١٨- الفتوحات الإلهية في نفع أرواح الذوات الإنسانية، في التصوف.

١٩- فتح الوهاب بشرح الآداب، وهو شرح على رسالة شمس الدين السمرقندي في آداب البحث والمناظرة، فرغ من تأليفه سنة ٨٦٨ هـ.

٢٠- بلوغ الأرب بشرح شذور الذهب، وهو شرح على متن شذور الذهب في النحو لابن هشام، فرغ من تأليفه سنة ٨٨٢ هـ.

وفاته:

توفي -رضي الله تعالى عنه- يوم الأربعاء ثالث شهر ذي الحجة سنة ٩٢٦ هـ، عن مائة وثلاث سنوات، وغسل في صبيحة يوم الخميس، وكفن ودفن بالقرافة الصغرى بتربة الشيخ نجم الدين الخويشاتي بقرب مقام الإمام الشافعي، وصلي عليه صلاة الغائب بالجامع الأموي بدمشق.

ومن شعره ما قاله – رضي الله تعالى عنه – راجيا ومتوسلا:

إلهي ذنوبي قد تعاظمَ خطْرُهـــا   وليس على غيرِ المُسـامِحِ متَّكَل
إلهي أنا العبدُ المُسيءُ وليسَ لي   سِواك، ولا عِلمٌ لديّ ولا عمـــل
إلـــهي أقِلْني عثرَتي وخطيئتي   لأني يـا مولاي في غايةِ الخَجل
إلهي ذنوبـــي مثل سبعةِ أبحُر   ولكنهـــا في جنبِ عفوك كالبَلل
ولولا رجائي أن عفوَك واســعٌ   وأنت كريمٌ مـا صبرتُ على زَلل
إلهي بحقِّ الهـــاشِميِّ محمَّدٍ   أجِرني مِن النيرانِ إني في وجـل
وباللطف والعفو الجميــل تولَّني   وبالخيرِ فامنُنْ عند خاتِمةِ الأجل

*****

٣- التعريف بناظم البُردة
الإمام شرف الدين البوصيري

اسمه ونشأته:

هو محمد بن سعيد بن حماد بن الصنهاجي البوصيري المصري، شرف الدين، أبو عبد الله. ولد بقرية «دلاص» إحدى قرى بني سويف من صعيد مصر سنة ٦٠٨ هـ (١٢١٣ م) لأسرة ترجع جذورها إلى قبيلة «صنهاجة» إحدى قبائل البربر، التي استوطنت الصحراء جنوب المغرب الأقصى.

نشأ البوصيري بقرية «بوصير» القريبة من مسقط رأسه، وبعد أن استظهر القرآن الكريم، أخذ يطلب العلم والعربية على علماء عصره، حتى وقف على أغراضهما وجمع أشتاتهما، فشدت إليه الرحال، وأخذ العلم عنه عدد كبير من العلماء المعروفين، كأبي حيان أثير الدين محمد بن يوسف الغرناطي الأندلسي، وفتح الدين أبي الفتح محمد بن محمد اليعمري الأندلسي الإشبيلي المصري، المعروف بابن سيد الناس... وغيرهما من العلماء الذين استفادوا من علمه ونهلوا من أدبه.

وقد أجاد البوصيري الخط، وتعلم قواعد هذا الفن على يد إبراهيم بن أبي عبد الله المصري وكان واحداً ممن اشتهروا بتجويد الخط في مصر، وشغل البوصيري عددا من الوظائف في القاهرة والأقاليم، فعمل في صناعة الكتب خلال فترة شبابه، ثم عمل ككاتب للحسابات بمدينة بلبيس بالشرقية.

عاش الإمام البوصيري في القرن السابع الهجري (القرن الثالث عشر الميلادي) في أجواء سادها اضطراب سياسي وفساد في الحياة الاجتماعية، واضمحلال في الحياة الأدبية والفكرية، وأثر ذلك على البوصيري في بواكير حياته، فأخذ ينقد تصرفات المحيطين به في العمل، إذ كان يعاني من أخلاقهم ما لا يلائم طبعه ولا يناسب عفته وصلاحه، وكان يضيق صدره بهم كثيرا، فنظم فيهم قصائد عدة يصف بها حالهم ويذكر مساوئهم، من جملتها قصيدته النونية التي مطلعها:

نقدت طوائف المستخدمينا   فلم أر فيهم رجلا أمينــا

وما لبث البوصيري أن ترك وظيفته، وغادر إلى الإسكندرية واستوطنها حتى آخر حياته، وفي الإسكندرية عرف الإمام البوصيري شيخ الإسكندرية وعالمها الجليل سيدي أبا العباس المرسى الذي كان قد وفد إلى الإسكندرية سنة ٦٤٢ هـ.

تصوف البوصيري:

لازم البوصيري شيخه أبا العباس المرسي، وأقبل على طريقه الصوفي وتتلمذ على يديه، فكان لهذه الصحبة المباركة أثرها العميق في توجيه البوصيري وصفاء روحه وقلبه.

يقول علي مبارك في خططه: «كان البوصيري وابن عطاء الله السكندري تلميذين لأبي العباس المرسى – فخلع على البوصيري لسان الشعر، وعلى ابن عطاء الله صاحب الحكم لسان النثر».

وقد وقف البوصيري شعره وفنه على مدح الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، ولا عجب في ذلك، فقد كان رضي الله عنه تلميذ العارف بالله أبي العباس المرسي، الذي أحب سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم، واتخذ من شريعته طريقه إلى الله حتى أصبح استشعار عظمته عليه الصلاة والسلام ماثلا في خاطره في كل حين، وكان أبو العباس المرسي يقول: «لو غاب ذكر محمد عليه السلام عن خاطري طرفة عين ماعددت نفسي مسلما».

وإذا كان هذا هو حال الأستاذ، فإن حال التلميذ كانت صورة صادقة من حال أستاذه، فغمر قلبه بحب الله ورسوله، وحمله هذا الحب على دراسة السيرة الطاهرة والإحاطة بدقائقها، وكانت تلك الإحاطة مدده الذي لم ينقطع وهو يصوغ مدائحه النبوية المتعددة، والتي تعد البردة والهمزية من أشهرها.

آثاره الأخرى:

ترك الإمام البوصيري -إضافة إلى البردة الشهيرة- عددًا كبيراً من القصائد، من أروعها في مدح النبي أيضا قصيدة «الهمزية» الشهيرة التي تتكون من ٤٥٧ بيتا، ويقول في مطلعها:

كيف ترقى رُقِيَّك الأنبـــياءُ   يا سماءً ما طاولتْها سمــاءُ

ومن قصائده الرائعة أيضا في مدح رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، قصيدته «المُضرية في الصلاة على خير البرية» التي يقول في مطلعها:

يارب صلِّ على المُختارِ مِنْ مُضَرِ   والأنبيا وجميعِ الرُسْلِ ما ذُكِروا

وصلِّ ربِّ على الهـــادي وعِترتِه   وصحبِهِ مَنْ لِطَيِّ الدِّينِ قد نَشَروا

ومنها أيضا القصيدة المحمدية التي يقول في مطلعها:

محمدٌ أشرفَ الأعرابِ والعَجَم محمدٌ خيرُ مَن يمشي على قدَم
محمدٌ باسِطُ المعروفِ جامِعُهُ محمدٌ صاحِبُ الإحسانِ والكرَم
محمدٌ تاجُ رُسْلِ الله قاطِبَــــةً محمدٌ صادِقُ الأقوالِ والكلِــــم

من روائع قصائده أيضا قصيدته «الحائية»، التي تقع في ٥٨ بيتا، ويقول في مطلعها:

أمدائِحٌ لي فيك أم تسبيـــــــحُ لولاك ما غفرَ الذُّنوبَ مديــحُ
حُدِّثْتُ أنَّ مدائحي في المُصطفى كفَّارة لي والحديث صحيـــحُ

والتي يقول في آخرها مناجيا الله عز وجل، متضرعا إليه:

يا من خزائِنِ مُلكِه مملــــــوءةٌ كرمًا وبابُ عطائه مفتــــوحُ
ندعوك عن فقرٍ إليك وحـــــاجةٍ ومجال فضلك للعبـــاد فسيحُ
فاصفحْ عن العبدِ المسيء تكرُّمًا إن الكريم عن المسيء صَفوحُ

وقصيدته «الدالية» التي بدأها بحمد الله وتقديسه، فقال:

إلهي على كل الأمور لك الحمد فليس لمــا أوليتَ من نعمٍ حدُّ
لك الأمرُ مِن قبلِ الزمانِ وبعده وما لَكَ قبلٌ كالزمـــان ولا بعدُ
وحُكمُك ماضٍ في الخلائق نافذٌ إذا شئتَ أمراً ليس من كونه بُدُّ
تُضِلُّ وتهدي من تشاءُ من الورى وما بيد الإنسـانِ غيٌّ ولا رَشَدُ

اشتهر أيضا من قصائده لاميته التي عارض بها قصيدة الصحابي الجليل كعب بن مالك «بانت سعاد»، وبدأها البوصيري بداية وعظية إرشادية، فقال:

إلى متى أنتَ باللَّذاتِ مشغــولُ   وأنتَ عنْ كلِّ ما قدَّمتَ مسئولُ

في كل يومٍ ترجى أن تتوبَ غدا   وعقدُ عزمِك بالتَّسويفِ محلـولُ

ومن قصائده التي تنم عن تضلعه في علوم الدين والعقيدة، لاميته التي كتبها في تفنيد عقائد اليهود والنصارى، وتقع في ١٥٣ بيتا، واستطاع البوصيري فيها أن يستعرض كل الحجج التي تناقلتها أجيال المسلمين في الرد على اليهود والنصارى، ومطلعها:

جاءَ المسيحُ مِن الإلهِ رسولا   فأبى أقلُّ العالمين عُقـــولا

قومٌ رأوا بشَرا كريمـــا فادَّعوا   مِن جهلِهم باللهِ فيه حُلـــولا

وفاته

تُوفِّي الإمام البوصيري بالإسكندرية سنة ٦٩٦ هـ (١٢٩٦ م)، ودفن في مسجده، الذي كان في الأصل زاوية صغيرة توالت عليها يد الإصلاح والترميم حتى شيد المسجد الحالي (سنة ١٢٧٤ هـ)، والذي يقع في مواجهة جامع سيدي أبي العباس المرسي، فجاور الإمامُ البوصيري أستاذَه أبا العباس في حياته وبعد مماته، رضي الله تعالى عنهما.

*****

٤- تقديم الكتاب

بقلم الدكتور عطية مصطفى
أستاذ الدعوة بكلية أصول الدين - جامعة الأزهر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله المحمود بكل لسان، المُقدَّسِ عن الشُّهود والعَيان، المشهود بسويداء الجنان، عظيم السلطان، قوي الأركان، واضح البرهان، الذي لا يَجري عليه زمانٌ ولا يُحيط به مكان، كان الله ولا شيء معه وهو على ما عليه كان.

والصلاة والسلام الأتمّان الأكْملان، والأعمّان الأشْملان، الدائمان الأبديان، المُستمِرّان السرمديان على سيدنا محمد سيد ولد عدنان، إنسان عين كل إنس وجان، ومَوردِ عذْب كل ظمآن، بهجة الزمان ونفحة المكان، المعرَّف به من ربه في سائر الأكوان، الذي فتح الله تعالى به النبوة في العوالم الأولية، وختم به الرسالات في دنيا البشرية، وعلى آله الأطهار المباركين ذوي الشجرة الزكيّة والقلوب الرضيّة والأرواح العليّة، وعلى صحابته الميامين ذوي الهمم العليّة والعزائم القوية، الذين حازوا بصحبته أعلى مرتبة ومَزيّة، وأعظم درجة وخُصوصية، وعلى كل مَن سلك دربَهم ولزم حِزبَهم ونال قُربهم وحُبهم، إلى يوم تقف فيه الخلائق أمام رب البرية، أما بعد...

فهذه مقدمة مباركة لبردة المديح النبوية، التي أفاضها الله تعالى على قلب ولسان شيخ المادحين الإمام أبي عبد الله محمد البوصيري رضي الله تعالى عنه، والتي كتب الله تعالى لها القبول لدى قلوب المحبين العاشقين، وعقول المؤمنين الصادقين المتعلقين والموقِّرين لخاتم الأنبياء والمرسلين، صلوات الله تعالى عليه وعلى إخوانه من النبيين وآله الطيبين وصحابته المكرمين.

المديح النبوي وفضله:

والمديح بصفة عامة هو الثناء على الممدوح بما يستحق من وصف حسن ومزايا جميلة ومناقب جليلة، أما مفهوم المديح النبوي لحضرته صلى الله عليه وآله وسلم فهو عبارة عن الثناء على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نثرا وشعرا، بتعداد ما أكرمه الله تعالى به من طيب الخصال وجميل الخلال، ووفرة مظاهر الجمال والجلال والكمال، وقد تسابق الصحابة رضي الله تعالى عنهم في ذلك، وكانوا يعددون أوصافه وأخلاقه نثرا ونظما، في حياته وبعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى كما سنرى ذلك في حينه.

ولا يدفع إلى المديح بصفة عامة سوى أمرين اثنين لا ثالث لهما: محبة الممدوح والتودد إليه وابتغاء رضاه وحبه، أو كسب العطاء المادي من الممدوح وذلك كمدح الشعراء للملوك والولاة والحكام والأغنياء لكسب عطاياهم. ولا شك أن مديح رسول الله صلى الله عليه وسلم من النوع الأول الذي يُعبِّرُ فيه المادِحُ عن حبه له صلى الله عليه وآله وسلم، الذي هو دليل على كمال الإيمان كما هو معروف، والذي هو من حب الله تعالى كما قال صلى الله عليه وآله وسلم: (لا يؤمن أحدُكُم حتى أكونَ أحبَّ إليه مِن ولدِه ووالدِه والناس أجمعين)[١]، وكما

(١) رواه البخاري في كتاب الإيمان من صحيحه، باب حب الرسول صلى الله عليه وسلم، ومسلم أيضا في كتاب الإيمان من صحيحه، باب وجوب محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

قال عليه الصلاة والسلام: (أحبوا الله لما يغذوكم من نعمه، وأحبوني لحب الله، وأحبوا أهل بيتي لحبي)[1].

والذي يُدقِّق النظر فيما ورد في كتاب الله تعالى مِن تكريم لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وثناءٍ عليه مِن الله عز وجل، كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[2]، وقوله عز وجل: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾[3]، وقوله سُبحانه: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ..﴾[4] إلى غير ذلك، يُدرِكُ أن الله تعالى أثنى على نبيه صلى الله عليه وآله وسلم بما لم يُثْنِ به على أحد سِواه، وجعل ألسِنةَ الخلقِ تلهجُ بذلك استجابةً لثناء الله تعالى عليه، وتحقيقاً لمعنى قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾[5].

فكل المادحين يدور في فلَكِ تحقيقِ هذا المعنى، ويغترفون مِن معين مدح الله تعالى لأخلاقه صلى الله عليه وآله وسلم، وفي هذا المعنى جاء قولُ بعضِهم للنبي صلى الله عليه وآله وسلم:

يا مُصطفى مِنْ قبلِ نشْأةِ آدمَ	والكونُ لمْ تُفتحْ لـه أغلاقُ
أيروم مخلوقٌ ثناءك بعدمـــا	أثنى على أخلاقِكَ الخلّاقُ

أي لا يبلغُ كائنٌ مَنْ كان مبْلَغَ ما قاله الحقُّ تعالى فيك، صلى الله عليك وسلم سيدي يا رسول الله!

(١) رواه الطبراني في المعجم الكبير، والحاكم في المستدرك على الصحيحين.
(٢) سورة القلم – الآية ٤
(٣) سورة الأنبياء – الآية ١٠٧
(٤) سورة آل عمران – من الآية ١٥٩
(٥) سورة الشرح – الآية ٤

مديح الأولين في رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

إن الثناءَ على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد واكَبَ حياته من ولها، وتناقلت كتبُ السيرةِ أخبارَ هذا المديح والثناءِ مِن الأوّلين لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فحينَ وُلِدَ حملَه جَدُّه عبدُ المطلب وذهب به إلى لكعبة المشرَّفة وطاف به، ولم يملك نفسه من الثناء على الوليد الجديد والمولود لسعيد، فقال:

الحمدُ لله الذي أعطـــــاني — هذا الغُلامَ الطيِّبَ الأردانِ
قد سادَ في المهدِ على الغلمان — أُعيذُهُ بالبيتِ ذي الأركانِ

وقال فيه عمُّه أبو طالب كما جاء في سيرة ابن هشام:

وأبيضُ يُسْتسقى الغَمامُ بوجْهِه — ثِمالُ اليتامى عِصْمةٌ للأراملِ
يلوذ به الهُلّاكُ مِن آلِ هاشِـمِ — فهم عِنده في رحمةٍ وفواضِلِ

وقد أورد ابنُ هشام في سيرته قصيدةَ أبي طالب الذي جاءت فيها هذه الأبيات، مُعقِّبا عليها بحديثِ الاستسقاء، فقال: أقحطَ أهلُ المدينة، فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فشكوا ذلك إليه، فصعد رسولُ الله صلى الله عليه وسلم المِنبرَ فاستسقى، فما لبثَ أنْ جاء مِن المطرِ ما أتاه أهلُ الضواحي يشكون منه الغرقَ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (اللهم حواليْنا ولا علينا)، فانجاب السحابُ عن المدينةِ فصار حواليْها كالإكليلِ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لو أدركَ أبو طالب هذا اليومَ لسرَّهُ)، فقال له بعضُ أصحابه: كأنك يا رسولَ الله أردتَ قوله:

وأبيضُ يُسْتسقى الغَمامُ بِوجْهِه — ثِمالُ اليتامى عِصْمةٌ لِلأراملِ

قال: (أجل).

إنَّ مدح النبي صلى الله عليه وسلم هو في حقيقةِ الأمرِ مدحٌ للنبوة، وإنَّ الثناءَ على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هو في حقيقتِه ثناءٌ على الرِّسالة وعلى مَن أرسلَه بها، لذلك كان صلى الله عليه وسلم يفرَحُ حين يُمدَحُ، لا لِشخْصِه وإنما لأنَّ المدْحَ لا يصدُرُ إلا مِن مُحِبٍّ صادِق ومؤمن كامل الإيمان، ولا أدل على ذلك مِن قصة إسلامِ كعبِ بن زهير والتي رواها الحافظ البيهقيُّ في دلائل النبوة، وابنُ عبد البرِّ في الاستيعاب، وغيرُهم، حيث أنشد كعبُ بن زهير قصيدتَه «بانت سعاد» بين يدي رسول الله مُعتذِراً بها عما بدر منه، مادحا فيها لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فسُرَّ بذلك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأعطاه بردته. وذكر ابن عبد البر في كتابه الاستيعاب أن كعبا لما انتهى إلى قوله:

إن الرسولَ لنورٌ يُستضاءُ بِه مُهنَّدٌ مِن سُيوف الله مسلول

قال: فأشارَ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى من معه أن اسمعوا.

لذلك كان الصحابةُ لا يرون بأْساً في إنشادِ قصائدِ المديح في المسجِد، وقد أورد الإمامُ البخاري رضي الله تعالى عنه في كتاب الصلاة من جامعه الصحيح باباً ترجم له بقوله: «بابُ الشِّعر في المسجدِ»، وفقه البخاري –كما يقولون– يُعرَفُ مِن تراجمه[1].

وأخرج البخاري أيضا في كتاب بدء الخلق من صحيحه، بسنده عن أبي هريرة أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه مر بحسان وهو ينشد الشعر في المسجد، فلحظ إليه، فقال: قد كنت أنشد فيه وفيه من هو خير منك، ثم التفت إلى أبي هريرة فقال: أنشدك الله أسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:

(١) وأورد النسائي أيضا في كتاب المساجد من سننه بابا بعنوان «باب الرخصة في إنشاد الشعر الحسن في المسجد».

(أجب عني، اللهم أيده بروح القدس)، قال: نعم. والمرادُ بروح القدس سيدنا جبريل عليه السلام، بدليلِ حديثِ البراء بن عازب عند البخاري بلفظ: (اهْجُهُم أو هاجِهِم وجِبريلُ معك)[1].

وأورد الترمذيُّ وأبو داود وأحمد، من حديث أم المؤمنين عائشة رضوان الله عليها أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وضع لِحسان منبرا في المسجد يهجو عليه الكفار[2].

ومن جميلِ ما قاله حسان بن ثابت في مديح رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قوله:

أغرٌّ عليه لِلنُّبوَّةِ خـــــاتَمٌ ... مِن الله ميمونٌ يلـــوحُ ويشهدُ

وضمَّ الإلهُ اسمَ النبيِّ إلى اسمِه ... إذا قال في الخَمْسِ المؤذِّنُ أشْهَدُ

وشقَّ لَـــهُ مِن اسْمِهِ لِيُجِلَّهُ ... فذو العرشِ محمـودٌ وهذا مُحمَّدُ[3]

وقوله أيضا:

وأجملُ مِنكَ لم ترَ قطُّ عينـي ... وأكملُ مِنْكَ لمْ تلِدِ النِّســاءُ

خُلِقْتَ مُبرَّءاً مِن كُـلِّ عَيْبِ ... كأنَّكَ قَدْ خُلِقْتَ كما تشــاءُ[4]

---

(١) رواه البخاري في كتاب الأدب، باب هجاء المشركين.

(٢) عن عائشة رضي الله عنها، قالت: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يضع لحسان منبرا في المسجد، فيقوم عليه يهجو من قال في رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن روحَ القُدُسِ مع حسان ما نافحَ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم).

(٣) انظر ديوان حسان بن ثابت، بشرح عبد الرحمن البرقوقي، قافية الدال.

(٤) انظر ديوان حسان بن ثابت، بشرح عبد الرحمن البرقوقي، قافية الألف.

المديح والمتشددون:

يشتبه على البعض أمرُ المديحِ النبوي ويظنون أنه لا يجوزُ، ويتشبثون بحديثٍ لم يفهموا مُراده، ويستدِلّون به في غير موضعه، وهو الحديث الذي رواه الإمامُ البخاري عن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: (لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم فإنما أنا عبده فقولوا عبد الله ورسوله)(١).

والحديث يدعو إلى المديح ويحُضُّ عليه ولا يمنعه، فالنهي في الحديث مقيَّدٌ، والنهي المقيد ينبغي أن يُفهمَ في ضوء قيده، فالنبي صلى الله عليه وآله وسلم يعلمُ أن صالحي أمتِه سوف يمدحونه بما مدحه الحق تعالى به، وهذا أمر لا بدَّ منه، فكل أمة تمدحُ نبيها لأنَّ مدحَ الرسول مدحٌ لرسالته وتمجيدٌ لمن أرسله تبارك وتعالى، لكنه يُحذِّرُهُم من أن يصلَ هذا المدح إلى حد التأليهِ أو البُنوّةِ لله تعالى، والذي وقعتْ فيه بعض الأمم حين انحرفتْ في مدح أنبيائها، ويُفهمُ هذا جليا من ذلك القيد الموجودِ في الحديث نفسه.

لهذا لم يقفُ الحديثُ عائِقا أمام مدحه صلى الله عليه وآله وسلم عند كل مَنْ فهِمه فهما صحيحا، فجاء مدحُه صلى الله عليه وآله وسلم على ألسنة الصحابة الأجلاء والتابعين العظماء وصُلحاءِ الأمة سلفا وخلفا، دون أن ينزعجوا من النهي عن الإطراء لأنه مُقيَّدٌ بِما حفِظهم الله تعالى منه، على ما يُفهَم من قوله صلى الله عليه وآله وسلم (وإني والله ما أخاف عليكم أن تُشرِكوا بعدي...)(٢).

---

(١) رواه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء من صحيحه، باب (واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها).

(٢) رواه البخاري في كتاب الجنائز من صحيحه، باب الصلاة على الشهيد.

وإلى هذا النهي المقيَّدِ أشار الإمامُ البوصيري رضي الله تعالى عنه في البردة، فقال:

دَعْ ما ادَّعتْه النَّصـــارى في نبيِّهِم   واحْكُمْ بما شِئتَ مدْحاً فيه واحتكِمِ
وانسِبْ إلى ذاتِه ما شِئْتَ مِن شرَفٍ   وانسِبْ إلى قدرِه ما شِئْتَ مِن عِظَمِ
فإن فضلَ رســولِ الله ليسَ له حدٌّ   فيُعرِبُ عنه نـــــــاطِقٌ بِفَمِ

والحقُّ أنه لا ينبغي لعاقِلٍ أن يجتزَّ مِن النص ثم يأخذ حكما على هواه، كما لا يجوزُ الاستِشهادُ ببعضِ الأحاديث دون معرفة مُرادِ الشرع منها، فهناك أحاديث تتجه إلى نهْيٍ بعينه، يُفصِّلُ معانيها أحاديث أخرى، وذلك مثل الحديث الذي رواه الإمام مسلم بسنده عن المقداد بن عمرو قال: (أمَرَنا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أن نَحْثيَ[1] في وجوه المدّاحين التراب).

فهذا الحديثُ ينهى عن أن تمدَحَ إنساناً في وجهه وبحضوره، وإنْ كان ما تمدَحُه به مِما اتَّصفَ به فعلا، بينما صدرَ المدحُ مِنه صلى الله عليه وسلم لأُناسٍ في حُضورهم، وقد قال أيضا عليه الصلاة والسلام في الحديث الذي رواه الحاكِم في المستدرك والطبرانيُّ في المعجم الكبير بسنديهما عن أسامة بن زيد: (إذا مُدِحَ المُؤمِنُ في وجهِه ربا الإيمانُ في قلبِه)، فخصَّصَ هذا الحديثُ المنعَ في الحديثِ السابق بما إذا خيف على الممدوحِ الغُرورُ والزهو والخُيلاء، فيُمْنَعُ المدْحُ في حضرتِه، وهذا ما فهِمه الإمامُ مسلِمٌ من حديث النهي الذي أورده، لذلك أدرج الحديث في صحيحه في باب بعنوان: «النهيُ عن المدح إذا كان فيه إفراطٌ وخيفَ منه فِتنة على الممدوح»، فلا بد من فهم الأحاديث فهما صحيحا، ولا بد من أخذ العلم عن أهله، جزى الله عنا شيوخنا خير الجزاء.

---

(١) وفي رواية الترمذي وابن ماجه وأحمد: (أن نحثوَ).

بردة الإمام البوصيري وسبب تأليفها:

أنشأ الإمام البوصيري رضي الله تعالى عنه قصيدةَ البُردةِ في مرَضٍ ألمَّ بِه، وقد اجتمع لهذه القصيدة صِدقُ الجنانِ وفصاحةُ اللِّسانِ وقوة البيان وحرارة العاطفة، وقد جاءت قصيدتُه هذه في لحظة اضْطِرارٍ وساعةِ انكِسارٍ وافتقار، وجو ضراعة خاص، كان المادح فيه قد سُدت أمامَه كلُّ الأبواب، إلا باب عشق رسول الله صلى الله عليه وسلم وحبِّه الصادقِ، الذي لا ينضبُ منه قلبُ ولِي من الأولياء في سائر الأحوال وشتى الظروف، فتوسل بذلك الحب وهذا العشق لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى الله تعالى، فعبَّرَ عن حبه وعِشقه لرسول الله صلى الله عليه وسلم بهذه القصيدة. لهذا قال أميرُ الشعراء أحمد شوقي في قصيدته «نَهْجِ البُردة» متحدثا عن مديح الإمام البوصيري:

مديحُه فيك حُبٌّ صادِقٌ وهوى وصادِقُ الحبِّ يُملى صادِقَ الكلِمِ

يُحدِّثُنا الإمام البوصيري رحمه الله تعالى عن الجو الذي قيلت فيه هذه البردة فيقول[1]: «.. داهمني الفالِج (الشلل النصفي) فأبطل نصفي، ففكَّرت في عمل قصيدتي هذه، فعملتها واستشفعتُ بها لله تعالى في أن يُعافيني، وكررت إنشادها ودعوت وتوسلت ونمت، فرأيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فمسح على وجهي بيدِه المباركة وألقى عليَّ بردة[2]، فانتبهتُ ووجدتُ فيّ نهضةً، فقُمتُ وخرجتُ مِن بيتي، ولم أكن أعلمتُ بِذلك أحدا، فلقيني بعضُ الفقراء[3]، فقال لي: أريد أن تعطيني القصيدةَ التي مدحتَ بِها رسولَ الله صلى الله عليه

(١) يأتي ذكر ذلك على لسان الشارح شيخ الإسلام القاضي زكريا الأنصاري رضي الله عنه في نهاية الشرح، وإنما سقناه هنا لبيان الجو العاطفي الذي قيلت فيه القصيدة.

(٢) وهذا سبب تسمية هذه القصيدة بالبردة تيمنا ببردة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وهو من أسباب قبولها وانتشارها.

(٣) أي أحد الصالحين.

وآله وسلم، فقلتُ: أي قصائدي؟ فقال: التي أنشأتَها في مرضِك، وذكرَ أوَّلها ...».

تفاعُلُ المسلمين مع البردة:

لم يشتهر أحدٌ في مجالِ مدح خير البرية صلى الله عليه وآله وسلم، مثلما اشتهر البوصيري صاحِبُ البردة الشهيرة التي فاقت شهرتُها شهرةَ صاحِبها، والتي تُعتبَر من الفرائِدِ في مدح رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وقد تلقّاها العلماء في مشارق الأرض ومغاربها عربا وعجما بالقبول والإجلال، حتى إنها كانت الهدية التي قدمها العلامة ابن خلدون إلى تيمورلنك، كما كان الأميرُ عبد القادر الجزائري يكتب على رايته التي جاهد تحتها الفرنسيين بيتا من أبياتها، وهو البيت الذي يقول فيه الإمام البوصيري:

ومن تكُنْ برسول الله نصرتُه إنْ تلْقَه الأُسْدُ في آجامِها تَجِمِ

وأصبحتِ البردةُ من أهم القصائد التي يتغنى بها المدّاحون في الليالي الدينية وفي الاحتفالات بالمولد النبوي الشريف، بل دأب المُسلمون في العديد من البلدان على إقامة مجالس أسبوعية للبردة يجتمعون فيها لقراءتها بصورة جماعية، مرددين البيت التالي بعد كل بيت من أبياتها:

مولاي صلِّ وسلِّم دائما أبدا على حبيبِك خيرِ الخلقِ كُلِّهِمِ

وذكر العلماء في حكمة اختيار هذا البيت للتكرار، أنَّ الناظِمَ رضي الله تعالى عنه لَمّا أنشأ هذه القصيدةَ رأى النبيَّ صلى الله عليه وآله وسلم في المنام، فأنشدَها بين يديه فطَرِبَ صلى الله عليه وسلم لها وأعجبته، فلما انتهى إلى قولِه: «فمبلغُ العِلْمِ فيه أنه بشرٌ» وقفَ الناظِمُ ولم يستطِعْ أن يُكمِلَ البيت، فقال عليه الصلاة والسلام له: (قل: وأنه خيرُ خلق الله كلهم)، فأدرجَ الإمامُ

البوصيري هذا المِصراعَ في البيت المتقدم، وجعله مطلعا يُردَّدُ بعد كل بيت، صلاةً مُكرّرةً على رسول الله صلى الله عليه وسلم مِن ناحية، وحِرْصاً على لفظ رسول الله صلى الله عليه وسلم مِن ناحيةٍ أخرى، تبرُّكا به عليه الصلاة والسلام.

ويصف زكي مبارك في كتابه المدائح النبوية تأثير البُردة في مجتمعات المسلمين فيقول:

«نستطيعُ الجزْمَ بأن الجماهير في مختلف الأقطار الإسلامية لم تحفظ قصيدةً مطولة كما حفِظتْ البردة، فقد كانت ولا تزالُ من الأوراد، تُقرأ في الصباح وتُقرأ في المساء، وكنت أرى لها مجلسا يُعقَدُ في ضريح سيدنا الحسين بعد صلاة الفجر مِن كل يوم جُمعة، وكان لذلك المجلسِ رهبةً تأخذ بمجامع القلوب..».

ثم يقولُ مَتحدِّثا عن الأثر التعليمي والتربوي للبردة:

«والبوصيري بهذه البُردة هو الأستاذُ الأعظمُ لجماهير المسلمين، ولقصيدتِه أثرٌ في تعليمهم الأدب والتاريخ والأخلاق، فعَن البردة تلقّى الناس طوائفَ من الألفاظ والتعابير غنيت بها لغةُ التخاطب، وعنِ البُردة عرفوا أبوابا من السيرة النبوية، وعن البردة تلقوا أبلغَ درسٍ في كرم الشمائل والخِلال، وكذلك استطاع البوصيري بتصوفه أن يؤثر في الأدبِ والأخلاقِ تأثيرا لا يُدرِك كُنْهَه إلا مَن رأى كيف تدورُ البردةُ على ألسنةِ العوام، وكيف تُهذِّبُ ما انطبعوا عليه من عنجهية الخصال، وليس من القليل أن تنفذَ هذه القصيدةُ بسحرِها الأخّاذ إلى مختلف الأقطار الإسلامية، وأن يكون الحرصُ على تلاوتها وحفظها من وسائل التقرب إلى الله والرسول».

أثرُ هذه القصيدة في الشعر العربي:

لقد ظلّت قصيدةُ البُردةِ مصدرَ إلهام لكثير من الشعراء على مر العصور والدهور، يحذون حذوها وينسجون على منوالِها، وينتهجون نَهجها، ومن أبرز أظهر مُعارضات الشعراء عليها قصيدةُ «نهج البردة» لأمير الشعراء أحمد شوقي، والتي تقع في ١٩٠ بيتا مطلعها:

ريمٌ على القاعِ بين البانِ والعلَمِ   أحل سفكَ دمي في الأشهر الحرم

والتي يقول فيها مُعترِفا بفضل الإمام البوصيري وبردته:

المادِحون وأربـــابُ الهوى تبَعٌ   لِصاحِبِ البُردة الفيحــاءِ ذي القِدمِ

مديحُه فيك حبٌّ خالِص وهوى   وصــادِقُ الحبِ يُملي صادِقَ الكَلِمِ

الله يشهدُ أني لا أُعـــــارِضُه   مَن ذا يُعارِض صوبَ العارِضِ العرِمِ

وإنما أنا بعضُ الغـابِطين ومَنْ   يَغبِط وليَّكَ لا يُذْمَـــــــم ولا يُلَمِ

ولم يقف الاهتمام بالبردة لدى الشعراء والمادحين عند حد المعارضة والنسج على المنوال فقط، وإنما حظيت باهتمام بالغ في دنيا الشعر، فقد شطَّروها وخمَّسوها وسبَّعوها وعشَّروها[1]، وقد ذكر الدكتور زكي مبارك في كتابه «المدائح النبوية» أمثلة ذلك، حتى ذكر أن الذين خمسوها نحو الثمانين شاعرا، وكان الإمام الفيومي أشهر من خمسها، في حين كان الإمام البيضاوي هو أشهر من سبعها، رحمة الله عليهم جميعا.

(١) التشطير أن يأتي الشاعر بشطر البيت من القصيدة التي يريد تشطيرها، ثم يأتي بعجز البيت من إنشائه هو على نفس الوزن والروي والمعنى، ثم يأتي بصدر بيت من إنشائه ثم يختم بعجز البيت الأول من قصيدة سابقة، والتخميس أن يأتي بثلاثة شطرات قبل البيت من القصيدة التي يريد تخميسها، والتسبيع أن يأتي بخمس شطرات، والتعشير أن يأتي بثماني شطرات.

شروح البردة:

اعتنى الكثيرُ مِن العلماء بشرحِ هذه القصيدةِ المُباركة وإعرابها وتدريسها في المساجد، ويقول أحد شُراح هذه القصيدة وهو ابن العماد الإقفهسي مُبيِّنا سببَ إقباله على شرحها:

«إن على كل مكلف أن يبحث عن صفات سيد المرسلين ليقتديَ به ويأخذَ بطريق السالكين، ولما كانت هذه القصيدةُ مشتمِلةً على جُمَلٍ مِن صفاته ومعجزاته وأخلاقه صلى الله عليه وسلم، كانت جديرة بأن تكون مناط اهتمام ومحلا لعدد من الشروح».

وقد أحصى الدكتور زكي مبارك عشرين شرحا لها في كتابه «المدائح النبوية»، إضافة إلى مجموعة أخرى من الشروح لا يعرف مؤلفوها.

ومن أشهر شروح البردة:

١-شرح الشيخ ملا علي القاري الحنفي المتوفى سنة ١٠١٤ هـ

٢-شرح الشيخ جلال الدين المحلي الشافعي، المتوفى سنة ٨٦٤ هـ

٣-شرح شيخ الإسلام زكري الأنصاري، المتوفى سنة ٩٢٦ هـ، وهو هذا الشرح الذي نقدم له

٤-شرح الشيخ القسطلاني المتوفى سنة ٩٢٣ هـ

٥-شرح الشيخ إبراهيم الباجوري المتوفى سنة ١٢٧٦ هـ

*****

البردة وفن الخط العربي

كان ابن مقلة (ت ٣٢٨ هـ/٩٤٠ م) هو أول من هندس الحروف العربية وقدر مقاييسها وأبعادها بالنقط، وضبطها ضبطا محكما، وقد قال ابن مقلة نفسه إنه اخترع هذا الخط حتى يكتب به القرآن «فإن القرآن نزل بنسبة إلهية فاضلة، فيجب أن يكتب بنسبة إلهية فاضلة».

ارتبط فن الخط العربي إذن منذ نشأته بالقرآن الكريم، وقد أنشئ هذا الارتباط علاقة روحية بين الخطاط وبين الخط، حتى قيل: «نقاءُ الكتابة من نقاء النَّفْس»، وحتى اعتبروا أن الخطاط لا يصل إلى قمة طريقه إلا إذا كتب المصحف الشريف، وحرص لذلك أفذاذ الخطاطين في مختلف العصور والأمصار على كتابة المصحف الشريف، وبرعوا وتفننوا في ذلك، حتى إن الواحد منهم كان يحرص على كتابة المصحف أكثر من مرة، ويروى أن ابن البواب (ت ٤١٣ هـ/١٠٢٢ م) كتب أربعة وستين مصحفا، وأن ياقوت المستعصمي (ت ٦٩٨ هـ/١٢٩٨ م) كتب سبعة مصاحف.

ولم تتوقف عناية هؤلاء الخطاطين المبدعين عند حدود النص القرآني، بل برعوا في فنون أخرى كالزخرفة والتذهيب، لما رأوه من كونها وسيلة إيجابية تسهم في توصيل الرسالة التي يريدون تحقيقها بواسطة الخط، حرص الكثير من الخطاطين أيضا على التفنن في كتابة بعض النصوص الأخرى ذات الأهمية الخاصة كالأحاديث النبوية أو الوصايا والأشعار الدينية.

ولما كانت قصيدة البردة التي أنشدها الإمام شرف الدين البوصيري في مدح المصطفى صلى الله عليه وسلم من أروع ما قيل في مدحه صلى الله عليه وسلم، لم يكن بالمستغرب على الخطاط المسلم أن يحتفي بهذا النص ويبدع في كتابته، تقربا إلى الله عز وجل وتوددا إلى حبيبه صلى الله عليه وسلم.

وتمثل نسخة القصيدة التي كتبها ابن الصائغ (ت ٨٤٦ هـ/١٤٤٢ م) شيخ الخطاطين في زمانه، والتي نقدمها ضمن هذا الإصدار، نموذجا متميزا لاحتفاء الخطاطين المبدعين بنص البردة، وانعكاسا لمكانة البردة في قلوب المؤمنين وأثرها في نفوسهم.

كان ابن الصائغ (زين الدين عبد الرحمن بن يوسف القاهري) شيخ الخطاطين في زمانه، وقد قال عنه الحافظ السخاوي في الضوء اللامع: «.. وتصدى الزين المذكور للتكتيب، فانتفع به الناس طبقة بعد أخرى، ونسخ عدة مصاحف وغيرها من الكتب والقصائد، وصار شيخ الكتاب في وقته بدون مدافع، ... وشهد له شيخنا (يعني: ابن حجر العسقلاني) مع كونه الغاية في إتقان الفن بمهارته وبراعته ..».

وكغيره من كبار الخطاطين نسخ ابن الصائغ عدة مصاحف كما أشار إلى ذلك الحافظ السخاوي، يوجد منها بدار الكتب المصرية مصحفان، كتب ابن الصائغ أحدهما (مصحف السلطان برقوق) سنة ٨٠١ هـ، والآخر سنة ٨١٤ هـ.

أما عن نسخة البردة المنشورة ضمن هذا الإصدار، والمحفوظة أيضا بدار الكتب المصرية، فقد كتبها ابن الصائغ سنة ٨٠٤ هـ، وعليها وقف باسم

السلطان الملك الأشرف سيف الدين أبو النصر برسباي الدقماقي الظاهري، حيث كانت موقوفة على جامعه الكائن بخط العنبرانيين، وقد أحضرت من كتبخانة جامع الأشرف لتستقر بقسم المخطوطات بدار الكتب المصرية تحت رقم ٤٥٥ أدب، وتشتمل هذه المخطوطة أيضا على تخميس يعد من أقدم التخاميس على قصيدة البردة، وهو لناصر الدين محمد بن عبد الصمد الفيومي.

ولم يتوقف احتفاء الخطاطين المسلمين بالبردة بعد ابن الصائغ، فكتبها الكثير من الخطاطين على مر العصور، كان من أبرزهم من المتأخرين الشيخ عبد العزيز الرفاعي، إمام الخطاطين في القرن العشرين (ت ١٩٣٤ م)[1].

*****

(١) جدير بالذكر هنا أيضا أن وزارة الثقافة والشباب وتنمية المجتمع في دولة الإمارات العربية المتحدة، تنظم منذ العام ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م، مسابقة سنوية في الشعر والخط العربي والزخرفة الكلاسيكية موضوعها «البردة»، وذلك في إطار احتفالاتها بذكرى المولد النبوي الشريف.

«... بعضُنا إذا نظرَ إلى نتاج الحضارةِ الإسلامية نظرَ إلى ظاهِرها، وتمتَّعَ بجمالها في العمارة، والخطِّ، والتذهيب للمصاحف والكتبِ، والفُسيفساء، والسِّجادِ والكليم، وقليلٌ أولئك الذين ينظرون إلى ذلك كلِّه، فيغوصون إلى النموذج المعرفي الكامِنِ وراءَ الظاهر، ويصلون إلى رمزية ما أمامَهم، ودلالاتِ الأشياء على ما تجسِّدُهُ مِن معانٍ وأفكار، ويعرفون عَلاقةَ ذلك بالعقائدِ والأخلاقِ القائمة في قلوب المبدعين أو المدركة في عقول الحِرفيين المقلِّدين، ويستدلون على ذلك في تحليلٍ رائعٍ على مدى المعرفة بالله والحبِّ له سبحانَه والمهابة منه تعالى شأنُه، ويربطون بين ذلك كلِّه وبين الرؤية الكلية للإنسان والكون والحياة التي كانت سائدةً أو شائعةً في عصرهم، أو تلك التي اشترك فيها البشرُ أو انفرد بها بعضُهم.

إنه شيءٌ بديع وجميل أن نتمتَّع بالظاهر الذي يوصِلنا إلى الباطِنِ... وبالشَّكلِ الذي يربطنا بالمضمون... وبالجمالِ البصري الذي يوصِلنا إلى الاطمئنان البصيري.

إنه شيء بديعٌ رائع أن نتجاوزَ التَّلقِّي إلى الفهم... ونتجاوزَ الفهمَ إلى التَّصديقِ، ونتجاوزَ التصديقَ إلى المعيشة والحياة، فيتم لنا بذلك التمتُّعُ بالجمال»[1].

(١) من مقدمة فضيلة الإمام العلامة الدكتور علي جمعة، مفتي الديار المصرية، لكتاب «روائع فن الخط والتذهيب القرآني» للشيخ أبي بكر سراج الدين.

الزبدة الرائقة
في
شرح البردة الفائقة

بشرح شيخ الإسلام القاضي

زكريا بن محمد بن أحمد الأنصاري

بسم الله الرحمن الرحيم

الحَمدُ للهِ المَلِكِ الوهّابِ، المُتَفضِّلِ بما منَحَ مِن الثوابِ، والصَّلاةُ والسَّلامُ على سيدِ الأنامِ، وعلى آلِهِ وصَحْبِه البَرَرةِ الكِرامِ، وبَعدُ،

فهذا شرْحٌ على البُرْدَةِ المَنْظومَةِ على بحْرِ البَسيطِ، في مدْحِ سيدِ المُرْسَلينَ، نظْمِ العالِمِ العارِفِ باللهِ تعالى، شرَفِ الدينِ أبي عبدِ اللهِ مُحَمدِ بن سعيدِ بنِ حمَّادِ المِصْري البوصَيري، طيَّبَ اللهُ ثراهُ، وجعَلَ الجَنَّةَ مثواهُ، يحُلُّ ألفاظَها، ويُبَيِّنُ مُرادَها، ويفْتَحُ أقْفالَها، وسَمَّيتُهُ بـ

«الزُّبدَة الرائِقَة في شرْحِ البُرْدَةِ الفائِقَةِ»

واللهَ أسألُ أنْ ينْفَعَ بِهِ، ويجعَلَهُ خالِصاً لوجْهِهِ.

ثُمَّ قدْ جرَتِ العادَةُ بالابْتِداءِ بالبَسْمَلَةِ ثُم بالحَمْدَلَةِ، ولعَلَ النَّاظِمَ فعَلَ ذلكَ نُطْقاً، ثُمَّ جرَّدَ من نفْسِهِ نفْساً خاطَبَها فقالَ:

الفصل الأول: في الغزل وشكوى الغرام

١- أمِنْ تذَكُّرِ جـــــيرانٍ بِذي سَلَمِ	مزَجْتَ دمْعـاً جَرَى من مُقْلَةٍ بِدَمِ
٢- أمْ هبَّتِ الرِّيحُ مِن تِلْقَـاءِ كَاظِمَةٍ	وأَوْمَض البَرْقُ في الظَّلْماءِ من إضَمِ

أَمِنْ تذَكُّرِ جيرانٍ -بكسر الجيم- **بِذي سَلَم، مزَجْتَ** -بفتح التاء- **دمْعاً جرى مِنْ مُقْلَةٍ بِدَمٍ** منكَ. **أمْ هبَّتِ الرِّيحُ** أي هاجَتْ **مِن تِلْقاءِ كاظِمَةٍ** أي جِهَتِها، **وأَوْمَض البَرْقُ** أي لمَعَ **في** اللَّيلةِ **الظَّلْماءِ مِنْ إضَمِ** بكسر الهمزة.

و «بِدَم» تُنازِعُهُ[1] «مزَج»، و«جَرى»، وباؤُهُ على الأوَّلِ للتَّعْدِيةِ، وعلى الثاني للمُصاحَبَةِ، و «المُقْلَةُ» العينُ، وفيها الحَدَقَةُ وهي السوادُ في وسَطِها، وفي الحَدَقَةِ النَّاظِر[2] والإنسانُ[3]، وهو محَلُّ البَصَرِ منها.

وفي البيتِ الأولِ براعَةُ الاسْتِهْلال، إذ فيه ما يُشيرُ إلى أنَّ هذه القَصيدَةَ في مدْحِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم، وهو ذِكْرُ الجيرانِ بِـ «ذي سَلَم»، لأنَّه قَريبٌ من المدينَةِ.

و «مِن» في الموضِعينِ من البيتِ الثاني للابْتِداءِ، وأرادَ بـ «الجِيرانِ» المَحبوبينَ،

---

(١) التَّنازُع لغة هو التجاذُب، وفي الاصطلاح هو تقدم عاملين أو أكثر على معمول، بحيث يكون كل من العاملين أو العوامل المتقدمة طالبا لهذا المعمول، أي مؤثرا فيه من الناحية الشكلية والإعرابية، وفي هذا البيت فإن «مزجت» و«جرى» متنازعان على «بدم».

(٢) سوادُ العين الذي فيه إنسانُها.

(٣) إنسان العين هو الفتحةُ التي يمُرُّ الضوءُ فيها إلى داخل العين، وتتسع وتضيق تبعا لشدة الضوء.

وبـ «ذي سَلَم» و«كاظِمَةٍ» و«إِضَم» أمكِنتَهُم، وهي قَريبَةٌ من مكةَ والمَدينَة، وبـ «مزْج الدَّمْع بالدَّم» -وهو خلْطُهُ بِهِ- شِدَّةَ البُكَاء، واسْتَفهمَ عَن سَبَبِها: أهوُ تذَكُّرُ المَحْبوبينَ الغائبين، أم هُبوبُ الرّيح ولمَعانُ البَرْقِ من جِهَتِهِم؟ فكَأَنَّ المُخاطَبَ أنْكَرَ ذلِكَ معَ نَشْأتِهِ عن الحُبِّ، لإِنْكارِهِ الحُبَّ، فقالَ لهُ مُستَفهِما استِفهاماً إنكارياً:

٣- فما لِعَيْنَيْكَ إنْ قُلْتَ اكْفُفَـا، هَمَتَا	ومَـا لِقَلْبِكَ إنْ قُلْتَ اسْتَفِقْ، يَهِمِ

فما، أي إنْ صدَقْتَ في إنْكارِكَ، فما لِعَيْنَيكَ إنْ قُلْتَ لهُما: **اكْفُفَا** عن البُكاءِ، أي اتْرُكاهُ، **هَمَتا** أي سَالَ دَمْعُهُما، **ومَا لِقَلْبِكَ إنْ قُلْتَ** لَهُ: **اسْتَفِقْ**، أي أفِقْ ممَّا أنت فيهِ، **يَهِم** أي يذْهَبُ مِن العِشْقِ أو غيرِه، وكُلٌّ مِن هَذَيْنِ الأمْرَيْنِ مِن آثارِ الحُبِّ. و«ما» في المَوْضِعينِ مُبْتَدأٌ، ومَا بعدَها خَبَر. ثُمَّ قالَ لهُ مُلْتَفِتاً مِن الخِطابِ إلى الغَيْبَةِ:

٤- أَيَحْسَبُ الصَّبُّ أَنَّ الحُبَّ مُنْكَتِـمٌ	مـــا بينَ مُنْسَجِمٍ مِنْهُ ومُضْطَرِمِ

أَيَحْسَبُ الصَّبُّ، أي أيظُنُّ العاشِقُ مع كَثْرَةِ بُكائِه **أَنَّ الحُبَّ مُنْكَتِمٌ** أي مُسْتَتِرٌ عن النَّاسِ، **ما** زائِدةٌ لإفادَةِ التَّقْليلِ أي شَيئاً من انْكِتامِ الحُبِّ، **بينَ** دَمْعٍ **مُنْسَجِمٍ مِنْهُ** أيْ سَائِلٍ **وقَلْبٍ مُضْطَرِمٍ مِنْهُ، أيْ مُشْتَعِل.**

والاسْتِفهامُ لِلتَّعَجُّبِ الإنْكاري، أيْ ما ينْبَغي لِلمُحبِّ أَنْ يظُنَّ انْكِتامَ حُبِّه عَنِ النَّاسِ في حالِ ظُهورِهِ بِانْسِجامِ دمْعِه واضْطِرامِ قَلْبِه.

وضميرُ «منْهُ» عائدٌ إلى «الصَّبِّ»، على حذفِ مُضافٍ، أيْ مُنْسَجِمٍ مِنْ دَمْعِ الصَّبِّ، ومُضْطَرِمٍ مِنْهُ. ثُمَّ احْتَجَّ على أنَّهُ مُحِبٌّ، فَقالَ مُخاطِبا لَهُ:

٥- لوْلَا الْهَوى لم تُرِقْ دمْعـاً على طَلَلٍ ولا أرِقْتَ لِذِكْرِ البَـــانِ والعَلَمِ

لولا الهَوى أيْ الحُبُّ مَوجُودٌ، **لم تُرِقْ** -فيه التِفاتٌ مِن الغَيْبَةِ إلى الخِطابِ- أي لم تَصُبَّ **دَمْعاً على طَلَلٍ** منْسوبٍ إلى المَحْبوبِ، وَهُو[1] ما شَخُصَ من آثارِ الدّارِ، **ولا أرِقْتَ** -بكسر الراء- أَيْ سَهِرْتَ **لِذِكْرِ البانِ والعَلَمِ** المُشَبَّه بِهِما المَحبوبُ في طُولِ القامَةِ وحُسْنِ الهَيئَةِ وطيبِ الرائحَةِ.

و«البانُ» شجَرٌ معْروفٌ[2]، واحِدُهُ «بانَةٌ»، و«العَلَمُ» الرُّمْحُ في رأْسِهِ رايَةٌ، ولامُ «لِذِكْرِ» للتَّعليلِ.

ثُمَّ تعجَّبَ من إنْكارِهِ الحُبَّ بعد ظُهورِهِ، فقالَ:

٦- فكَيْفَ تُنْكِرُ حُبّاً بَعْدَ مـــا شَهِدَتْ بِهِ علَيْكَ عُـــدولُ الدَّمعِ والسَّقَمِ

فكيْفَ تُنْكِرُ حُبّاً -بِضَمِّ الحاءِ وكسْرِها- أيْ محَبَّةً، **بَعْدَ ما شهِدَتْ** أي أَخْبَرَتْ **بِهِ عَليكَ عُدولُ**[3] **الدَّمعِ والسَّقَمِ** النَّاشِئَيْنِ عن الحُبِّ.

والسَّقَمُ -بِضَمِّ السِّينِ وسُكونِ القافِ، وبِفَتْحِهما وهو ما في النَّظْمِ- طولُ المَرَضِ،

---

(١) أي الطلل، وجمعه أطلال وطلول.

(٢) هو شجر ممشوق القوام، لين، ورقه كورق الصفصاف، ويشبه به الحسان في الطول واللين.

(٣) جمع «عدل» وهو الشاهد المُنصف المُصدَّق.

و«مَا» مصْدَريةٌ، وإضافَةُ «عُدول» إلى مَا بَعْدَها بيانيةٌ، واسْتعمالُ الجَمْع في اثنَيْنِ سَائغٌ. وفي التَّقْييدِ ببَعْدَيةِ ما ذكَرَ اسْتبعادٌ للإنْكارِ، لأنَّهُ إنَّما يحسُنُ قبلَ الشَّهادَةِ لا بعدَها، وعطَفَ على «شَهِدَتْ» قولَهُ:

٧- وأَثْبَتَ الوَجْدُ خَطَّيْ عَبْرةٍ وضَنـــىً ... مِثْلَ البَهـــارِ على خدَّيْكَ والعَنَمِ

وأَثْبَتَ الوَجْدُ أيْ الحُزْنُ بسَبَبِ الحُبِّ **خطَّيْ عبْرَةٍ** -بفَتْحِ العَينِ- أي بُكاءٍ، بأَنْ سالَ دَمعُ العَيْنين، **وضَنى** -عطْفٌ على «خَطَّيْ»- وهو المَرَضُ، والمُرادُ هنا أثَرُهُ، **مثْلَ البَهار**[1] -بفَتْحِ المُوَحَدَةِ- وهو وردٌ أصفرُ، **على خَدَّيكَ** مُتَعَلِّقٌ بـ "أَثْبَتَ"، **والعَنَمِ**[2] -بفَتْحِ المُهْمَلَةِ والنونِ- شجَرٌ لهُ أغْصَانٌ حُمُرٌ.

و«مِثْلَ» صِفَةٌ لـ «خَطَّيْ» و«ضَنى»، والقَصْدُ تَشْبيهُ الخَطَّين بالعَنَمِ في الحُمْرةِ لامْتزاجِ الدَّمْعِ بالدَّمِ، وتَشْبيهُ أثَرِ الضَّنى بالبَهارِ في الصُّفْرَةِ، فَفي كلامِهِ لَفٌّ ونَشْرٌ مَعْكوسٌ[3].

ولمَّا انْجَلى كَونُ المُخَاطَبِ مُحِبّاً، وكانَ هُو المُتَكَلِّمُ في المَعْنى، رجَعَ عن التَّجْريدِ إلى التَّكَلُّمِ، واعْتَرَفَ بالحُبِّ فقالَ:

---

(١) يُطلق «البَهار» على كل شيء حسن منير، وهو زهر طيب الرائحة ينبت أيام الربيع.

(٢) نبات أملس دائم الخضرة، أزهاره قرمزية اللون يتخذ منها خضاب.

(٣) اللف والنشر في البلاغة هو ذكر الأشياء المتعددة، ثم ذكر ما يتصل بها على سبيل الترتيب، الأول للأول، والثاني للثاني، وهكذا... من ذلك قوله تعالى: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ﴾ [سورة القصص-٧٣]، فقد جمع في هذه الآية الليل والنهار أولاً، ثم ذكر السكون لليل وابتغاء الرزق للنهار على الترتيب. وقد يأتي اللف والنشر معكوسا، كما في هذا البيت، بأن تذكر الأشياء ثم يذكر ما يتصل بها، ولكن ليس على الترتيب، وذلك لغرض بلاغي، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [سورة آل عمران-١٠٦].

٨- نعَمْ سَرَى طيْفُ مَنْ أهْوَى، فأرَّقني والحُبُّ يَعْترِضُ اللذَّات بالألَـــم

نعَمْ سَرَى إليَّ **طيْفُ**، أيْ جاءَنْي في اللَّيْلِ خَيَالُ **مَنْ أهْوَى** أيْ أُحِبُّه، **فأرَّقَني** أيْ أسْهَرَني في ألَم بعدَ أنْ كُنْتُ في لذَّةِ النَّوم، **والحُبُّ يعترِضُ اللذَّات** أي يحولُ دُونَها **بالألَم**، أيْ بالوَجَعِ مِن جِهةِ ما ينشَأُ عنهُ مِن عدَمِ الوصْلِ من المحْبوبِ.

و«نَعَم» تكونُ لتصْديق مُخْبِرٍ بعدَ خبَرِه، كـ «قامَ زيدٌ»، ولإعلامِ مُستَخْبِرٍ بعدَ اسْتخْبارِه، كـ «أقامَ زيْدٌ؟»، ولوعْدِ طالبٍ بعدَ طلَبِه، كـ «أعْطِني»، وهي هُنا للأولِ أو للثَّاني. ثُمَّ اسْتَشْعرَ لائماً في الحُبِّ فقالَ:

٩- يــا لائِمي في الهَوى العُذْرِيِّ مَعْذِرةً منِّي إليـــكَ، ولو أنْصَفتَ لمْ تَلُم

يا لائمي أيْ عَاذِلي **في الهَوى العُذْرِيِّ** -بذالٍ مُعْجَمَة- أيْ الحُبِّ المُفْرِطِ، المَنْسوبِ إلى بَني عُذْرَةَ، قَبيلَةَ من العَرَبِ يُؤدِّي العشْقُ بهم إلى المَوْت[1]، **معْذرَةً منِّي إليكَ** -منصُوبٌ مَصدراً، أو نُصبَ المَصْدَرُ بفِعْلٍ مُقَدَّرٍ، وهو بدَلٌ من اللفْظِ بِهِ- أي أعْتَذِرُ إليكَ بأنَي مُبْتَلى بالحُبِّ لمَنْ أهواهُ.

فـ «مَعْذِرَةً» بمَعْنى «عُذْراً» إنْ كانَتْ مصْدَراً، وإلا فبمَعْنى ما يُعْتَذَرُ به، كأنْ يقولَ المُحبُّ للعاذِلِ: إني مُحبٌّ فلا تَلُمْني، إذِ المُحبُّ لا يُلامُ، سيَّما الحُبُّ العُذْرِيُّ، **ولو أنْصَفْتَ** أي عدَلْتَ، **لم تَلُمْ** في الحُبِّ، لعلْمِكَ بأنَّهُ ليس اخْتيارياً.

ثُمَّ دعا للائمِهِ اسْتِعْطافاً ليرِقَّ لَهُ فيقْبَلَ عُذْرَهُ، فقالَ:

(١) قبيلة مشهورة باليمن، اشتُهر عنهم صدقُهم في الحب ورقَّةُ قلوبهم.

١٠- عدَتْكَ حَـــالي، لا سرِّي بِمُسْتَتِرٍ عَنِ الوُشَـــاةِ، ولا دَائي بِمُنْحَسِمِ

عدَتْكَ أي تعدَّتْ إليكَ **حالي**، أي هيئَتي في الحُبِّ بأنْ يبْتليكَ اللهُ بِهِ، وبيَّنها بِقولِه: **لا سرِّي** وهو ما أكْتُمُهُ، **بِمُسْتَترٍ عن الوُشَاةِ** -بضَمِّ الواو- جمْعُ «واشٍ»، أيْ الكَذَبَةِ الساعينَ في الفسادِ بيني وبينَ مَن أهْواه، **ولا دَائي** أيْ مرَضي في الحُبِّ **بِمُنْحَسِمٍ**، أي بِمُنْقَطِعٍ لِعَدَمِ الوَصْلِ من المحْبوبِ.

وجُمْلَةُ «عدَتْكَ حَالي» تحْتَمِلُ أَنْ تكونَ إنْشائيَّةً دُعائيةً، بِحُلولِ حالِه للعاذِلِ كما قرَّرْتُهُ، أو بعَدَمِ حُلولِها لهُ وأن تكونَ خبَريةً، أي جاوَزَتْكَ حالي فلَمْ تُصَبْ بمُصيبَتي، ولو أُصِبْتَ بها لما عَذَلْتَني ولعَذَرْتَني. ثُمَّ بيَّنَ حالَهُ على التقْديرينِ بِقولِهِ: «لا سرِّي...» إلى آخره، ثُمَّ اعْتَرَفَ لِلائمِه بِالحُبِّ، فقال:

١١- محَّضْتَني النُّصْحَ لكنْ لَسْتُ أسمَعُهُ إنَّ المُحبَّ عَنِ العُذَّالِ في صَمَـــمِ

محَّضْتَني النُّصْحَ وهو الإرْشَادُ إلى المَصْلَحَةِ، أيْ أخْلَصْتَهُ بزَعْمِكَ من شوائبِ الأغْراضِ في لومِكَ لي في الهَوى مِن قِبَلِ أسْبابِه، كالالتفاتِ إلى محْبوبِه، والتَّطَلُّعِ إليهِ، والتَّولُّعِ بهِ، والتَّفَكُّرِ في محاسِنِهِ، **لكنْ لسْتُ أسْمَعُهُ**، أيْ سماعَ قَبولٍ.

ولمَّا كانَ عدَمُ قُبولِهِ النُّصْحَ على خِلافِ مُقْتَضى العَقْلِ، أبْدَى عُذْرَه في ذلِكَ، فقالَ **إنَّ المُحِبَّ** -فيهِ التِفاتٌ من التَّكَلُّمِ إلى الغَيبةِ- **عن العُذَّالِ** -بِذالٍ مُعْجمة- أي اللُّوامِ، **في صَمَمٍ** -خبَرُ «إنَّ»، و«عن» مُتَعَلِّقَةٌ[1] بِـ «صَمَم»، وهي

(١) التعلُّق حكم من أحكام حروف الجر والظروف، وهو نوع من الارتباط المتمم للمعنى، ينعقد بين ما يشبه الجملة من ظرف وجار ومجرور، وما قبلهما من أفعال أو ما يشبهها.

لِلمُجاوَزَةِ- أي جاوَزَ صَمَمُ المُحِبِّ العُذَّالَ، فلَا يقْبَلُ عذْلَهُمْ، فأمْسِكْ أيُّها العَاذِلُ عنْ نُصْحِكَ.

١٢- إنِّي اتَّهَمْتُ نصِيحَ الشَّيْبِ في عَذَلٍ والشَّيْبُ أبْعَدُ في نُصْحٍ عَنِ التُّهَمِ

إنِّي اتَّهمْتُ نصِيحَ الشَّيْبِ في عَذَلٍ -بِفَتح الذَّال المُعْجَمة اسْمُ مصْدَرٍ، والمَصْدَرُ بِسُكُونِها- ومعْناهُ اللَّومُ، و«نصِيح» بِمَعنى ناصِحٍ، وإضافَتُهُ لِلبَيانِ، و«في عَذَلٍ» مُتَعلِّقٌ بـ «اتَّهَمْتُ».

والشَّيبُ وهو ابْيِضاضُ الشَّعْرِ **أبْعَدُ في نُصْحٍ عن التُّهَمِ**، والجُمْلَةُ مُستَأنَفَةٌ أو حالٌ لازِمَةٌ من مفْعَولِ «اتَّهَمْتُ» في المَعْنى، وهو الشَّيبُ، و«في» و«عَن» مُتَعلِّقانِ بـ «أبْعَدُ». وعلَّلَ اتِّهامَهُ لَهُ بِقَولِهِ:

*****

الفصل الثاني: في التحذير من هوى النفس

١٣- فإنَّ أمَّـــارَتي بالسُّوءِ ما اتَّعَظَتْ مِنْ جَهْلِهـــا، بِنَذيرِ الشَّيْبِ والهَرَمِ

فإنَّ أمَّارتِي أيْ كثيرةَ الأمْرِ، وهي نفْسي[1]، **بالسُّوءِ** أي بكُلِّ قبيحٍ، **ما اتَّعَظَتْ من** أجَلِ **جهْلِها بنَذيرِ الشَّيْبِ والهرَمِ** أي بياضِ الشَّعْرِ، وكِبَرِ السِّنِ، وضَعْفِ القُوى، وكُلٌّ من الشَّيبِ والهرَمِ مُنْذِرٌ، أيْ مُخَوِّفٌ بقُرْبِ المَوتِ، المُفوِّتِ للتَّوبةِ وسائرِ الطَّاعاتِ. وإضافةُ «نذير» للبَيانِ، وهي من إضافةِ الصِّفَةِ إلى المَوصُوفِ.

وعَطَفَ على «ما اتَّعَظَتْ» قولَهُ:

١٤- ولا أعَدَّتْ مِنَ الفِعْلِ الجَـميلِ قِرَى ضَيفٍ، ألَمَّ بِرأسي غَيْرَ مُحْتَشِـــمِ

ولا أعدَّتْ أي هيَّأَتْ **من الفعْلِ الجَميلِ** أي الحَسَنِ، **قِرَى ضَيْفٍ** أي إحْساناً إليهِ، **ألَمَّ** أي نَزَلَ الضيفُ **برأْسِي غيرَ مُحْتَشِمٍ** لي، أي غيرَ مُسْتَحْيٍ منِّي في نُزُولِهِ برأسِي، وهو الشَّيبُ.

---

(١) يقول الإمام الباجوري في شرحه لهذا البيت: و«الأمارة» من أنواع النفس، وهي التي تأمر بالمخالفة، فلا يلوح لها طمع إلا فعلته، ولا برزت لها شهوة إلا قضتها، فلم تسلك سبيل الرشاد، ولم تستضئ بنور السداد، وقد ذكرها الله في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [سورة يوسف - من الآية ٥٣]، ومنها «اللوامة»، وهي التي ترجع باللوم على صاحبها كثيرا عند الوقوع في المعصية لسابقة القضاء، قال تعالى: ﴿وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ [سورة القيامة - الآية ٢]، ومنها «المطمئنة» وهي التي اطمأنت للإيمان وللتصديق بوعد الله، فهي دائما موفقة للطاعة، مصدقة بلقاء الله تعالى، وقد ذكرها الله تعالى في قوله: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ﴾ [سورة الفجر - الآية ٢٧].

وعدَمُ احْتِشام الضيفِ في نُزولِه دليلٌ على كرَمِه في عادَةِ العَرَبِ، وقِرَى هذا الضَيفِ، وهو الشَّيبُ، الأعْمالُ الصَّالِحةُ من التَّوبَةِ وغيرِها، ولَمْ أُوَقِّرْه بإتياني بها[1].

و«مِن» للتَّبعيضِ، والباءُ للظَّرفيةِ، و«غيرَ» حالٌ من فاعِلِ «ألَمَّ»، أو صِفَةٌ لِـ «ضَيْفٍ».

١٥- لَو كُنتُ أَعْلَمُ أنِّي مـــا أُوَقِّرُهُ   كَتَمْتُ سِرّاً بداَ لِي مِنْهُ بالكَتَـــم

لو كُنتُ أعْلَمُ قبْلَ نُزولِه بي، **أنّي ما أُوَقِّرُهُ** أي أُعَظِّمُهُ بعدَ نُزولِه بي، **كَتَمْتُ** أيْ أخْفَيتُ **سراً**، يعْني شيْباً، **بدَا** أي ظهَرَ **لي منْهُ بالكَتَم**[2] -بفَتْحِ الكافِ والتاءِ- نبْتٌ يُخْتَضَبُ بِه كالحِنَّاءِ، أي خضَبْتُهُ حينَ نُزُولِهِ بي، حتى لا أُنْسَبُ إلى عدَمِ توقيرِهِ، النَّاشِئِ مِن نفْسي الأمَّارةِ بالسُّوءِ.

وعَبَّرَ عن الشَّيبِ بِالسِّرِّ لأنَّه قبلَ ظُهورِهِ خَفِيٌّ، وفي البيتِ تَنْبيهٌ على طلَبِ توقيرِ الشَّيبِ.

ثُمَّ اسْتَفهمَ عمَّنْ يتَكفَّلُ لَهُ بِرَدِّ جِماحِ أمَّارتِه، فقالَ:

(١) يقول الإمام الباجوري: لما كان الشيب نذيرا بانقضاء العمر، صار بلسان حاله طالبا للأعمال الصالحة، التي هي زاد الآخرة، كما يطلب الضيف قراه تصريحا أو تلويحا ..... وإنما كان غير محتشم لأن من آداب الضيف أن لا يكثر الإقامة عند من أضافه، فمن أكثرها عنده كان غير محتشم، والشيب إذا نزل لا يرتحل إلا بالموت فهو غير محتشم، فعلى العاقل أن يستعد بالأعمال الصالحة لضيافته.

(٢) شجر ينبت في المناطق الجبلية من البلاد الحارة المعتدلة، ثمرته تشبه الفلفل، وكان يستعمل قديما في الخضاب، وصنع المداد.

١٦- مَنْ لي بِرَدِّ جماحٍ مِنْ غَوايَتِهـــــا كما يُرَدُّ جمـــــاحُ الخَيْلِ باللُّجُم

مَنْ لي بردِّ أي صَرفِ **جماحٍ** -بكَسْر الجيم- أي غلَبَةٍ لها، **مِنْ غوايَتِها** -بفَتْح الغين- أي ضلالِها، **كما يُرَدُّ جماحُ الخَيْلِ** أيْ غلبَتُها لراكِبِها، **باللُّجُم** جمْع «لِجام». وهذا اسْتِفْهامُ تضَرُّعٍ واسْتِعْطافٍ، أي مَنْ يتَكَفَّلُ لي بردِّها، تفَضُّلًا منْهُ بمَواعِظِهِ السَنيةِ وأسْرارِهِ العَلِيَّةِ(١)، و«ما» مصْدَرِيةٌ.

ثُمَّ اسْتَشْعَرَ ما يُقالُ إنَّها تُرَدُّ بِشِبَعِها مِن مُشْتَهَياتِها، ولا يُحْتاجُ إلى ردِّها، فدفَعَهُ بقولِه:

١٧- فلا تَرُمْ بِالمَعـــــاصي كَسْرَ شَهْوَتِها إنَّ الطَّعـــــامَ يُقَوِّي شَهْوَةَ النَّهِمِ

فلا ترُمْ أيْ تطْلُب **بالمَعاصي** المُشْتَهاةِ لها، **كسْرَ** أيْ صرفَ **شهْوتِها** إليها. ثُمَّ اسْتَدَلَ على أنَّ تماديها يقْتَضي تمْكينَها في المَعاصي بقولِه **إنَّ الطَّعامَ** وهو ما يُؤْكَلُ، **يُقَوِّي شهْوَةَ النَّهِم** -بفَتْح النُّونِ وكسْرِ الهاءِ- أيْ الشَّديدِ الشَّهْوَةِ إلى الطَّعامِ، بِحَيثُ لا يملُّهُ بكَثْرةِ المَرَّاتِ لإلْفِهِ لَهُ، كذلِكَ إلْفُ النَّفسِ للمَعاصي يُقَوِّي شهْوتَها إليها، والشَّهْوَةُ ميلُ النَّفْسِ إلى شيءٍ.

ثُمَّ شَبَّهَ النَّفْسَ في اسْتِمرارِها على مألوفاتِها بِالطِّفْلِ، فقالَ:

(١) يقول الباجوري: وفي هذا البيت إشارة إلى أن السلوك لا يتم إلا بشيخ عارف، لأن النفس ربما تستحسن أمرا، فيكون الهلاك فيه، فالشيخ العارف كالطبيب الماهر.

١٨- والنَّفْسُ كالطِّفْلِ إنْ تُهْمِلْهُ شبَّ على حُبِّ الرَّضَاعِ، وإنْ تَفْطِمْهُ يَنْفَطِمِ

والنَّفْسُ أيْ الرُّوحُ[1]، **كالطِّفْلِ إنْ تُهْمِلْهُ** أي تَتْرُكْهُ، **شبَّ** أيْ نشَطَ وقَوِيَ **على حُبِّ الرَّضَاعِ** لإلْفِهِ لَهُ، **وإنْ تفطِمْهُ** أيْ تفْصِلْهُ عَنِ الرَّضاعِ، **ينْفَطِم**.

والنَّفْسُ إنَّما تنْفَطِمُ عَن مألُوفاتِها مِن المَعاصي برادِعٍ قَوِيٍّ أو لُطْفٍ إلَهي.

١٩- فاصْرِفْ هَوَاها، وَحَاذِرْ أَنْ تُوَلِّيَهُ إنَّ الهَوَى ما تُولى[2]، يُصْمِ أو يَصِمِ

فاصْرِفْ أي رُدَّ **هَواها** بما تقْدِرُ عليه، **وحاذِرْ** أي احْذَرْ **أَنْ تُوَلِّيَهُ**، مِن الوِلايةِ، أي تُؤَمِّره على أمْرٍ.

إنَّ الهَوَى[3] ما تُولَّى -بِبِنائِه للْمَفْعولِ- **يُصْمِ** -بضَمِ الياءِ- أي يقْتُلُ، **أو يَصِمْ** -بِفَتْحِها- أي يعيبُ. و «ما» شرْطيةٌ، وهي وما بعْدَها خبَرُ «إنَّ»، و «أو» للتَّقْسيمِ، نحْوَ: ﴿كُونُواْ هُوداً أَوْ نَصَارَىٰ﴾[4].

---

(١) يقول الإمام الباجوري في شرحه: واعلم أن النفس لطيفة ربانية، وهي الروح قبل تعلقها بالأجساد، وقد خلق الله الأرواح قبل الأجساد بألفي عام، فكانت حينئذ في جوار الحق وقربه، فتستفيض من حضرته بلا واسطة، فلما أمرها الحق أن تتعلق بالأجساد عرفت الغير فحجبت عن حضرة الحق، بسبب بعدها عنه تعالى، فلذلك احتاجت إلى مذكر، قال تعالى ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة الذاريات - الآية ٥٥] فهي قبل تعلقها بالجسد تسمى روحا، وبعد تعلقها به تسمى نفسا، فالاختلاف بينهما اعتباري.

(٢) وفي رواية: «ما تَوَلَّى»، على أنه مبني للفاعل، بمعنى صار واليا، وكل صحيح.

(٣) قال الإمام الباجوري في شرحه لهذا البيت: ولما كان الهوى سببا للهلاك أجمع على ذمه العارفون، ووردت بذمه الآيات والأحاديث، لأنه يُنْتِجُ من الأخلاق قبائحَها، ويُظْهِرُ من الأفعال فضائحها، ويجعل ستر المروءة مهتوكا، ومدخل الشر مسلوكا. وقال ابن عباس: «الهوى إله يُعبد من دون الله»، وتلا قوله تعالى ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُ هَوَاهُ﴾ [سورة الجاثية - من الآية ٢٣]. وقال الشعبي: «إنما سمي هوى لأنه يهوي بصاحبه إلى النار».

(٤) سورة البقرة - من الآية ١٣٥

٢٠- وَرَاعِهَا وَهْيَ فِي الأَعْمَالِ سَـــائِمَةٌ وإنْ هِيَ اسْتَحْلَتِ المَرْعَى فلا تُسِم

وراعِهَا أي لاحِظْها، **وهي** -أي والحالَةُ أنَّها- **في الأعْمالِ** الصالِحَةِ **سائِمَةٌ**، أي سارِحَةٌ تنْتَقِلُ من عمَلٍ إلى آخَرَ. **وإنْ هي اسْتَحْلَتِ المَرْعَى** الَّذِي ترْعَى فيهِ من الأعْمالِ المَنْدوبَةِ أي وجَدَتْهُ حُلواً، **فلا تُسِم** -بضَمِّ أولِه- أي فلا تُبْقِها في ذلكَ، بلْ اقْطَعْها عنْهُ، خوفَ العُجْبِ والرِّياءِ المُهْلِكَيْن، واسْتَعمِلْها فيما لا تسْتَحليهِ من أعمالٍ أُخَرَ مطلوبَةٍ.

و«تُسِم» أصْلُهُ «تُسيمُ» حُذِفَتْ الياءُ لِسُكونِ الميمِ، وإنَّما لمْ تعُدْ بعْدَ تحْريكِ المَيمِ لأنَّ حركَتَها عارِضَةٌ لِلقافِيةِ.

ثُمَّ اسْتَشْهدَ على حالِ ما أمَرَ برِعايتِهِ، فقالَ:

٢١- كمْ حسَّنَتْ لَذَّةً لِلْمَرْءِ قَـــاتِلَةً مِنْ حَيْثُ لمْ يَدْرِ أَنَّ السُّمَّ في الدَّسَمِ

كمْ خبَرِيَّةٌ بمَعنى كثيرا، **حسَّنَتْ** أيْ زيَّنَتْ، **لذَّةً للْمَرءِ** -بفَتْحِ الميم وضَمِّها- أي الرَّجل، **قاتِلَةً** لَهُ، في مطعوم أو غيرِه، **من حيثُ لمْ يدْرِ أنَّ السُّمَّ** -بضم السينِ- كائنٌ **في الدَّسَمِ** أي الوَدَك[1]، فيَهْلِكُ بِتِلْكَ اللَّذائذِ بالتَّدريجِ[2].

و«لذَّةً» تمييزٌ لـ «كَمْ»، و«قاتِلَةً» نعْتٌ لـ «لذَّةً»، و«للمَرْءِ» تُنازِعُهُ «حسَّنَتْ»، و«لذَّةً»، و«قاتِلَةً».

---

(١) الوَدَك هو الدَّسَم، أو دسَم اللَّحم ودُهنه الذي يُستخرج منه، يقال «لَحْمٌ وَدِك» أي به وَدَك.

(٢) يقول الإمام الباجوري: وخص السم بالذكر لأنه قاتل، وخص الدسم بالذكر لأنه يعلو الأشياء فيستر ما تحته، والمراد بالسم هنا حظ النفس، والمراد بالدسم هنا الطاعة... والحاصل أن النفس لها حظ في الطاعة كما أن لها حظا في المعصية، بل حظها في الطاعة أشد، لأن حظها في المعصية ظاهر جلي، وحظها في الطاعة باطن خفي.

٢٢- واخْشَ الدَّسَائسَ مِنْ جُوعٍ ومِنْ شِبَعٍ ... فرُبَّ مخْمَصَةٍ شرٌّ مِنَ التُّخَـــم

واخْشَ أي خَفْ **الدَّسائسَ** الحاصِلَةَ **من جوعٍ ومن شِبَعٍ**، بِأَنْ لا تُبالِغْ فيهما، ولا تَسْتَبْعِدِ الدَّسائسَ مِن الجُوعِ، **فرُبَّ مخْمَصَةٍ** أي مجاعَةٍ، **شرٌّ مِن التُّخَم** أيْ الحاصِلَةِ مِن الشِّبَعِ.

و«الدَّسائسُ» جمْعُ «دسيسَةٍ» وهي الكيدُ والمَكْرُ الخَفيّ، ودَسائسُ الجوعِ الحِدَّةُ وسوءُ الخُلُقِ ونحْوُهُما، ودَسائسُ الشِّبَعِ الكَسَلُ وغَلَبَةُ الشَّهْوَةِ وإظْلامُ القَلْبِ ونحْوُها، وكُلٌّ من هذهِ الأمورِ مُشوِّشٌ لِلعبادَةِ، وقَدْ تَحْصُلُ العبادَةُ معَ الشِّبَعِ دُونَ الجوعِ، فيكونُ الجوع شرّاً مِن الشِّبَعِ.

و«رُبَّ» هُنا حرفُ تقْليلٍ، و«التُّخَمُ» جمعُ «تُخْمَةٍ»، وهي فسادُ الطَّعامِ في المَعِدَةِ، المُؤدِّي فسادُه إلى فسادِها، لإدْخالِ بعْضِهِ على بعْضٍ قبْلَ انْهِضامِهِ.

٢٣- واسْتَفْرِغِ الدَّمْعَ مِنْ عَينٍ قدِ امْتَلَأَتْ ... مِنَ المَحَـــارِمِ، والْزَمْ حِمْيَةَ النَّدَمِ

واسْتَفْرِغِ الدَّمْعَ أي أفْرِغْهُ، أوِ اطْلُبْ فراغَهُ بالبُكاءِ، **مِن عينٍ قدِ امْتَلَأَتْ مِن المَحارِمِ** بالنَّظَرِ إليها، وهي جمْعُ «مَحْرَمٍ» بمَعْنى حرامٍ، و«مِن» الأولى للابْتداءِ، والثانيةُ للتَّبعيضِ أو للتَّعليلِ، أي امْتَلأَتِ العَيْنُ من الآثامِ من أجْلِ المَحارِمِ. **والزَمْ حِمْيةَ النَّدَمِ** المَعْنيّ بهِ التَّوبَةُ[1]، أي الْزَمْ التَّوبَةَ التي تَحْميكَ عن عِقابِ المَحارِمِ.

---

(١) روى الإمام أحمد في مسنده، وابن ماجه في سننه، بسنديهما عن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (الندم توبة).

٢٤- وخَالِفِ النَّفْسَ والشَّيطَانَ واعْصِهِما وإنْ هُمَا محَّضَـــاكَ النُّصْحَ فاتَّهِمِ

وخالِف النَّفْسَ الأمّارَةَ بالسُّوءِ **والشَّيطانَ، واعْصِهما** فيما يأمُرانِ بهِ وينْهيانِ عنْهُ، **وإنْ هُما محَّضَاكَ النُّصْحَ** أي أخْلَصَاهُ، كأنْ تقولَ لكَ النَّفْسُ «متِّعْني بشَهْوَةٍ كذا لأتَمَلّى بها، ثُمَّ أتوجَّهُ إلى الطَّاعَةِ بنَشاطٍ»، **فاتَّهِمِ** أي فاتَّهِمْها في ذلكَ، لجَوازِ أنْ يكونَ دسيسَةً لشَرٍّ بعْدَهُ.

ونَبَّهَ بقولِهِ «واعْصِهِما» على أنَّهُ لا يُكْتَفى بمُخالَفَتِهِ لهُما، لأنَّهُ قدْ يُخالِفُهُما إلى ما يرضيانِ بهِ، فاعْتَبَرَ في المُخالَفَةِ عِصيانَهُ لهُما. وأكَّدَ قولَهُ «وخالِف...» الى آخِرِهِ بقولِهِ:

٢٥- ولا تُطِعْ منْهُمَـــا خَصْماً ولا حَكَماً فأنْتَ تعْرِفُ كيْدَ الخَصْمِ والحَكَمِ

ولا تُطِعْ منْهُما خَصْماً ولا حكَماً أي حاكِماً، وأرادَ بالخَصْمِ النَّفْسَ، وبالحَكَمِ الشَّيطَانَ، أو العَكْسَ، **فأنْتَ تعْرِفُ كيدَ الخَصْمِ والحَكَمِ** من الناسِ، أيْ مكْرُهُما ليُوقِعاكَ فيما يضُرُّكَ، وكيدُ النَّفْسِ والشَّيطَانِ في ذلِكَ أعْظَمُ.

وقولُهُ «منهُما» حالٌ ممّا بعْدَهُ، و«من» للتَّبعيضِ، و«لا» الثانيةِ زائدَةٌ لتَأكيدِ النَّهي. ولمَّا أمَرَ بصَرْفِ الهَوى وبغيرِهِ ممَّا مرَّ، ونهى عن ضِدِّ ذلكَ، خافَ على نفْسِهِ أنَّهُ ممَّنْ يأمُرُ بالمَعْروفِ وينْهى عن المُنْكَرِ، وهو مُتَّصِفٌ بضِدِّ ذلِك، قال:

٢٦- أَسْتَغْفِرُ اللهَ مِنْ قولٍ بلا عَمَـــلٍ لقَدْ نَسَبْتُ بِهِ نَسْلاً لِذِي عُقُـــمِ

أَسْتَغْفِرُ اللهَ أي أطْلُبُ مِنْهُ الغُفْرانَ، أي سِتْرَ عُيوبي، **مِنْ قولٍ بلا عمَلٍ** بِه، لأنني أَمَرْتُ بما لَمْ أفْعَلْهُ، وارْتَكَبْتُ ما نَهيْتُ عنْهُ، وحَيثُ اتَّصَفْتُ بِذَلِك، أَعْني بالقَولِ الخالي عن العَمَلِ به، **لقَدْ نَسَبْتُ** أيْ أضَفْتُ **بِهِ، نَسْلاً** أي ولداً **لذِي عُقُم** -بِضَمِّ القافِ مع ضَمِّ العَينِ، لُغَةٌ في سُكونِها مَعَ ضَمِّ العينِ وفَتْحِها- فإنَّ القولَ كالنَّسْلِ لقائلِه لِصُدورِهِ عنهُ، فإنْ لمْ يعْمَلْ به، لا يعْمَلْ سامِعُهُ بِهِ غالِباً، فكأنَّهُ لمْ يقُلْهُ، فنِسْبَتُهُ إليه كنِسْبَةِ نسْلٍ لذي عُقُمٍ، وهو كذِبٌ يسْتَغْفِرُ مِنه.

و «عُقُم» في البيتِ مصْدَرٌ، لا جمْعَ «عقيم» وهو من لا يلِدُ، لأَنَّ «ذي» إنَّما تُضافُ لِمَصْدَرٍ أو اسم جِنْسٍ، و «مِن» للتَّعْدية أو للتَّعْليل، وباءُ «بِلا» لِلمُصاحَبَةِ، وباءُ «بِه» للسَّبَبيةِ، وهي ولامُ «لِذي» مُتَعَلِّقان بـ «نَسَبْتُ».

٢٧- أَمَرْتُكَ الخَيرَ، لكِنْ ما ائْتَمَرْتُ بِــهِ وما اسْتَقَمْتُ، فَمَا قَولي لَكَ اسْتَقِمِ

أَمَرْتُكَ الخَيرَ أي بِهِ، **لكِنْ ما ائْتَمَرْتُ** أنا **بِهِ،** أي ما امْتَثَلْتُ أمْري بِه، **وما اسْتَقَمْتُ** أنا، أيْ ما اعْتَدَلْتُ[1]، **فَمَا قَولي لَكَ اسْتَقِم** أي فإنَّهُ لا ينْفَعُ غالِباً إلا إذا اسْتَقَمْتُ أنا.

و «أَمَرَ» يتَعَدَّى لاثْنَين، ثانيهما بالباءِ وقد تُحْذَفُ، والاسْتِعْمالانِ في البيتِ كما تقَرَّرَ، و «ما» الأخيرةُ للاسْتِفْهامِ الإنْكاري، ولامُ «لَكَ» للْبيانِ، كما في «سُقيا لك».

(١) حاشاه الإمام البوصيري من ذلك، فقد كان من أكابر العُبّاد، غير أنه يقول ما يقول من باب التواضع وهضم النفس.

٢٨- ولا تَزَوَّدْتُ قبْلَ المَوتِ نــــــافِلَةً　　ولَمْ أُصَلِّ سِوَى فَرْضٍ، ولَمْ أَصُــمِ

ولا تَزَوَّدْتُ[١] أي عملْتُ، **قبْلَ المَوتِ** المُفَوِّتِ للطّاعاتِ **نافلَةً** أيْ تطُّوعاً، وأَكَّدَ مفْهومَ ذلكَ بقولِهِ: **ولَمْ أُصَلِّ سِوَى فَرْضٍ** -بِكَسْرِ السِّينِ وضَمِّها- **ولَمْ أصُم** أي سِوى فَرْضٍ[٢].

وخَصَّ الصَّلاةَ والصَّومَ بالذِّكْرِ لِأَنَّهُما محْضُ عِبادةٍ بَدَنيةٍ، وسَكَتَ عن الإيمانِ لِمُقارَنَتِهِ وجُودَ مَن وُلِدَ في الإسلامِ، ولأنَّهُ لا يُتَنَفَّلُ به عادةً.

*****

(١) مأخوذ من قوله تعالى ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [سورة البقرة - من الآية ١٩٧].

(٢) يبعد على مثله الاقتصارُ على الفرائض، لكنه لورعه وفنائه يتَّهِمُ نفسَه بعدم الإخلاص في العبادة، فينزلها منزلة العدم تواضعا لله تعالى وانكسارا.

الفصل الثالث: في مدح النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم

٢٩- ظَلَمْتُ سُنَّةَ مَنْ أحْيــا الظَّلامَ إلى   أَنِ اشْتَكَتْ قدَمَــاهُ الضُّرَّ من وَرَم

ظَلَمْتُ بتَركي النافلَةَ **سُنَّةَ مَنْ أحْيا الظَّلامَ** أي اللَّيلَ، بقيامِهِ فيهِ مُصَلّياً، **إلى أَنِ اشْتَكَتْ**، أي انْتَفَخَتْ، **قدَمَاهُ الضُّرَّ** -بضمِّ الضاد- أي سُوءَ حالِهما **من** أجْلِ **وَرَمٍ** حلَّ بِهِما، صلى الله عليه وسلم[1].

و«إلى» غايةٌ لإحياءِ الليلِ، وهي بيانٌ للواقعِ فلا مفْهومَ لها، وعَطَفَ على «أحْيا» قولَهُ:

٣٠- وشَدَّ مِنْ سَغَبٍ أحْشَــاءَهُ وطَوَى   تحْتَ الحِجــارَةِ كشْحاً مُتْرَفَ الأَدَمِ

وشَدَّ أي عصَبَ، **من** أجْلِ **سَغَبٍ** أي جوعٍ، **أحْشاءَهُ** أي أضْلاعَهُ، **وطَوَى** أي وثَنى من جِلْدِ بطْنِهِ **تحْتَ الحِجارةِ** التي وضَعَها عليهِ، **كَشْحاً** وهو ما بين الخاصرةِ وأقْصَرِ أضلاعِ الجَنْبِ، **مُتْرَفَ الأَدَمِ** -بفَتْحِ الراءِ نعْتٌ لـ «كشْحاً»، والإضافةُ لفْظيةٌ- أي ناعِمَ الجِلْدِ في غايةٍ.

(١) روى البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، سورة الفتح، بسنده عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه قال: قام النبي صلى الله عليه وسلم حتى تورمت قدماه، فقيل له: غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، قال: (أفلا أكون عبدا شكورا).

وشَدُّهُ الحَجَرَ على بَطنِهِ مِن الجوعِ وقَعَ لهُ في حفْرِ الخَنْدَقِ[1]، وحِكْمَتُهُ أنَّهُ يُخِفُّ بِبَرْدِ الحَجَرِ حَرارَةَ الباطِنِ.

ثُمَّ دفَعَ ما قدْ يُتوهَّمُ مِمَّا ذُكِرَ أنَّ جُوعَهُ مِن فاقةٍ وفَقْرٍ، لا مِن زُهْدٍ في الدُنيا، بِقولِهِ:

٣١- وَراوَدَتْهُ الجِبَالُ الشُّمُّ مِنْ ذَهَبٍ ... عَنْ نفْسِه، فأَرَاهَا أيَّمَا شَمَمِ

وَراوَدَتْهُ الجِبالُ الشُّمُّ، جمْعُ «أشَمّ» أي العَوالي، حالَةَ كونِها **من ذَهَبٍ، عن نفْسِه**، أي طلَبَتْ منْهُ باحْتيالٍ أنْ يأْخُذَها، **فأَراهَا أيَّمَا شمَمٍ**[2]، بزيادةِ «ما» للتَأكيدِ، أي أعرَضَ عنْها وارْتَفَعَ عليها غايةَ الارْتِفاعِ.

و«عن» لِلْمُجاوَزَةِ، أي راوَدَتْهُ أنْ يُجاوِزَ احْتيالُها لَهُ نفْسَهُ، و«أيَّ» مفْعولٌ ثانٍ لـ «أرى» قائمٌ مقامَ موصوفٍ محْذوفٍ، أيْ «شَمَماً أيَّ شمَمٍ».

---

(١) رواه البخاري في صحيحه كتاب المغازي، باب غزوة الخندق، بسنده عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: إنا يوم الخندق نحفر فعرضت كدية شديدة فجاءوا النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا هذه كدية عرضت في الخندق، فقال: أنا نازل، ثم قام وبطنه معصوب بحجر، ولبثنا ثلاثة أيام لا نذوق ذواقا، فأخذ النبي صلى الله عليه وسلم المعول فضرب، فعاد كثيبا [أي رملا] أهيل أو أهيم، فقلت يا رسول الله ائذن لي إلى البيت، فقلت لامرأتي رأيت بالنبي صلى الله عليه وسلم شيئا ما كان في ذلك صبر، فعندك شيء، قالت عندي شعير وعَناق [الأنثى من أولاد المعز ما لم يتم له سنة]، فذبحت العَناق وطحنت الشعير حتى جعلنا اللحم في البُرمة [قدر من الفخار]، ثم جئت النبي صلى الله عليه وسلم والعجين قد انكسر، والبرمة بين الأثافي قد كادت أن تنضج، فقلت طعيم لي فقم أنت يا رسول الله ورجل أو رجلان، قال: كم هو فذكرت له، قال: كثير طيب، قال: قل لها لا تنزع البرمة ولا الخبز من التنور [الفرن] حتى آتي، فقال: قوموا، فقام المهاجرون والأنصار، فلما دخل على امرأته قال: ويحك جاء النبي صلى الله عليه وسلم بالمهاجرين والأنصار ومن معهم، قالت: هل سألك؟ قلت: نعم، فقال: ادخلوا ولا تضاغطوا، فجعل يكسر الخبز ويجعل عليه اللحم ويخمر البرمة والتنور إذا أخذ منه ويقرب إلى أصحابه ثم ينزع، فلم يزل يكسر الخبز ويغرف حتى شبعوا وبقي بقية، قال: كلي هذا وأهدي فإن الناس أصابتهم مجاعة.

(٢) الشَّمَم: الارتفاع، يقال «شم الرجل» أي ترفع وتكبر، فهو أشمّ، وهي شماء، والجمع شُمّ.

وهذا مأخوذٌ من خبَرِ أنَّ جبْريلَ قالَ لَهُ: إنَّ اللهَ يقولُ لك: أتُحِبُّ أنْ أجْعَلَ هذه الجِبالَ ذهَباً وتكونَ معَكَ حيثُ ما كُنتَ، فأطْرَقَ ساعَةً ثُمَّ قال: يا جبْريلُ! إنَّ الدُّنيا دارُ مَن لا دارَ له، ومالُ مَن لا مالَ له، قد يجْمَعُها مَن لا عقْلَ له، فقالَ لَهُ جبْريلُ: ثبَّتَكَ اللهُ بالقولِ الثّابِتِ يا مُحَمَّد[1].

٣٢- وأكَّدَتْ زُهْدَهُ فيهـــا ضَرورَتُهُ   إنَّ الضَّرُورَةَ لا تَعْدُو على العِصَـــمِ

وأكَّدَتْ زُهْدَهُ فيها أيْ في الجِبالِ مِن ذهَبٍ، **ضَرورَتُهُ** إلى شيءٍ منْها[2]. **إنَّ الضَّرورَةَ لا تَعْدُو على العِصَمِ** أيْ لا تعْتَدي عليها ولا تغْلِبُها.

و«العِصَمُ» جمعُ «عِصْمَة» وهيَ قوَّةٌ مِن اللهِ في عبْدِهِ تمنَعُهُ مِن ارتِكابِ شيءٍ مِن المَعاصي والمَكروهاتِ[3]. و«زُهْدَهُ» مفْعولُ «أكَّدَتْ»، و«ضَرورَتُهُ» فاعِلُهُ، و«فيها» مُتَعَلِّقٌ بـ «زُهْدَهُ».

ثُمَّ اسْتَدَلَّ على الحُكْمِ الذي نفاهُ، فقالَ:

٣٣- وكيفَ تَدْعو إلى الدُّنيـا ضَرُورَةُ مَنْ   لوْلاهُ لم تُخْرَجِ الدُّنيـــا مِنَ العَدَمِ

وكيفَ لِلاسْتِفهامِ الإنكاري، أي لا **تدْعو** أي تميلُ، **إلى** حُبِّ **الدُّنيا** أصَالَةً،

---

(١) جاء في مسند الإمام أحمد بسنده عن السيدة عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الدنيا دار مَنْ لا دار له، ومال مَنْ لا مال له، ولها يجمع مَنْ لا عقل له.

(٢) ولا شك أن الضرورة، وهي شدة الحاجة، تؤكد الزهد في الشيء، لأن الإعراض عن الشيء وقلة الرغبة فيه، مع شدة الاحتياج إليه دليل جلي وبرهان قطعي على الزهد في ذلك الشيء.

(٣) حتى لا يفعل من المباحات ما لا يليق بمقامه العالي وقدره الرفيع.

ضَرُورَةٌ من لوْلَاهُ موجودٌ، **لمْ تُخْرَجِ الدُّنيا مِن العَدَمِ** إلى الوجودِ[1]، ببناءِ «تُخْرَجِ» للْمَفْعولِ أو لِلْفاعِلِ.

وخَرَجَ بقولي «أصالَةً» دُعاءُ ضرورةٍ إلى الدُّنيا عرَضاً، كالحاجةِ إلى قدْرِ القوتِ وسَتْرِ العَوْرَةِ، أخْذاً مِن نحْوِ ما رواهُ مُسْلِمٌ، أَنَّهُ صلَّى الله عليه وسلم خرَجَ ذاتَ ليلَةٍ فإذا هو بِأَبِي بكْرٍ وعُمَرَ، فقالَ: «ما أَخْرَجَكُما مِن بُيوتِكُما هذهِ الساعَةَ؟» قالا: «الجوعُ يا رسولَ الله»، قالَ: «وأَنا والذي نفْسي بيدِهِ لأَخْرَجَني الذي أَخْرَجَكُما، قوما»، فقاما معَهُ فأَتَوْا رجُلاً من الأَنْصارِ، وهو أبو الهيثَمِ بنُ التيهانِ، فجاءَهُم بِعِذْقٍ فيهِ بُسْرٌ[2] وتَمْرٌ ورُطَبٌ فقالَ: «كُلوا» وأَخَذَ المُديةَ[3]، فقالَ لهُ رسولُ الله صلى الله عليه وسَلَّمَ: «إيّاكَ والحَلوبَ[4]»، فذَبَحَ لهُمْ فأكَلوا مِن الشاةِ ومِن ذلكَ العِذْقِ، فشَرِبوا حتى شبِعُوا ورَوُوا[5].

---

(١) قال الإمام الباجوري في ذلك: والأصل في ذلك ما رواه الحاكم والبيهقي، من قول الله تعالى لآدم لما سأله بحق محمد أن يغفر له ما اقترفه من صورة الخطيئة، وكان رأى على قوائم العرش مكتوبا «لا إله إلا الله محمد رسول الله»: (سألتني بحقه أن أغفر لك، وقد غفرت لك، ولولاه ما خلقتك). فوجود آدم عليه السلام متوقف على وجوده صلى الله عليه وسلم، وآدم أبو البشر، وقد خلق الله لهم ما في الأرض وسخر لهم الشمس والقمر والليل والنهار وغير ذلك، كما هو نص القرآن، قال تعالى: ﴿خَلَقَ لَكُمْ مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعاً﴾ [سورة البقرة - من الآية ٢٩]، ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنَ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ [سورة إبراهيم - الآية ٣٣]، وإذا كانت هذه الأمور إنما خلقت لأجل البشر، وأبو البشر إنما خلق لأجله صلى الله عليه وسلم، كانت الدنيا إنما خلقت لأجله فيكون صلى الله عليه وسلم هو السبب في وجود كل شيء.

وقد روى هذا الحديث الحاكم في «المستدرك»، والبيهقي في «دلائل النبوة»، والآجُريُّ في «الشريعة»، والطبرانيُّ في «المعجم الأوسط».

(٢) البُسْرُ هو تمر النخل قبل أن يُرْطِب، والعذق هو كل غُصن له شُعَب، وعِذق النخلة يسمى أيضا «قنو» وجمعه «قنوان»، قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ﴾ [سورة الأنعام - من الآية ٩٩].

(٣) السِّكين الكبير.

(٤) ذات اللبن.

(٥) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الأشربة، باب جواز استتباعه غيره إلى دار من يثق برضاه بذلك ويتحققه تحققا تاما واستحباب الاجتماع على الطعام. ورواه الترمذي كذلك في سننه، كتاب الزهد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب ما جاء في معيشة أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم.

٣٤- مُحَمَّــــــدٌ سَيِّدُ الكَوْنَينِ والثَّقَلَيْنِ والفَرِيقَيْنِ مِنْ عُرْبٍ ومِنْ عَجَـــمِ

مُحمّدٌ خبرُ مُبتدأ مُقدّر، أي الممدوح مُحمّدٌ، ووَصَفَهُ بصِفاتٍ في البَيْتَينِ[1] فقال: **سيّدُ** أهْلِ **الكونَيْنِ** أي الوجودين، وجودِ الدُّنيا ووجودِ الآخرةِ، بمعنى الموجودين فيهما، وسيّدُ **الثَّقَلَيْنِ** أي الإنْسِ والجنِّ، وسيِّدُ **الفَرِيقَيْنِ من عُرْبٍ ومن عجَم**. هذا وما قبْلَهُ[2] من عطْفِ الخاصِّ على العام، للتصريح به في مقام المدح، و«مِن» لبَيانِ الجنْسِ، وهي مُتَعَلِّقَةٌ بـ «الفَريقين».

٣٥- نَبيُّنا الآمِرُ النَّـــــاهي، فلا أحَدٌ أبَرَّ فـــي قوْلِ «لا» منْهُ ولا «نَعَم»

نَبيُّنا الآمِرُ بالمَعْروفِ **النَّاهي** عن المُنْكَرِ من قِبَلِ الله تعالى، **فلا أحَدٌ** من الخَلْقِ **أبَرَّ** -بالنَّصْبِ- أي أصْدَقَ **في قوْلِ «لا» منْهُ، ولا** قولِ **«نَعَم»**، بلْ هو أبَرُّ منْهُمْ، أي أصْدَقُ منهم في ذلك. والفاءُ لمُجَرَّدِ العَطْفِ، و«في» و«مِن» مُتَعَلِّقانِ بـ «أبَرَّ»، و«لا» الثانيةُ زائدَةٌ لتأكيدِ النَّفي.

٣٦- هو الحَبيبُ الذي تُرْجَى شَفَــاعَتُهُ لِكُلِّ هَوْلٍ مِنَ الأهْـــوَالِ مُقْتَحَمِ

هو الحَبيبُ للّه **الذي تُرْجى شَفاعَتُه** عِنْدَهُ، **لِكُلِّ هَولٍ** أيْ مَخُوفٍ **من الأهْوالِ مُقْتَحَم** -بِفَتحِ الحاءِ- أيْ يقْتَحِمُ فيهِ الخَلْقُ، أي يقعونَ فيه، وذلكَ في يومِ القيامةِ.

---

(١) أي شطري البيت، وإلا فالقصيدة كلها في مدح الرسول صلى الله عليه وآله وسلم.

(٢) أي والأبيات التي قبله، بدءاً من البيت التاسع والعشرين «ظلمتُ سُنّة من أحيا الظلام ....».

قالَ النَوويُّ[1]: «وللنَّبيِّ صلى الله عليه وسلم فيه شفاعاتٌ خمسٌ: الشَّفاعَةُ العُظْمى لِلفَصْلِ بينَ أهلِ المَوقِفِ، وفي جماعَةٍ يدخُلونَ الجَنَةَ بِغيرِ حِسابٍ، وفي ناسٍ اسْتَحَقّوا النَّارَ فلا يدْخُلونَها، وفي ناسٍ دخَلوا النَّارَ فيُخْرَجونَ منْها، وفي رفْعِ ناسٍ في الجَنَّة. والمُخْتَصُّ بِهِ منْها الأُولى والثانيةُ، ويجوزُ أنْ تكونَ الثالثَةُ والخامسَةُ أيضا».

وزادَ بعضُهُم على الخَمْسِ شفاعاتٍ أُخَر، يرْجِعُ بعْضُها إلى بعْضِ الخَمْسِ، كخُروجِ مَن في قلْبِه مثْقالُ ذرَّةٍ من إيمانٍ من النارِ، وتَخْفيفِ عذابِ بعضِ أهلِ النارِ، كما في عمِّهِ أبي طالب.

و «مِن الأَهْوالِ»، و «مُقْتَحَم» صِفتانِ لـ «هَوْلٍ»، و «مِن» لِلتَّبْعيضِ.

٣٧- دَعَـــا إلى اللَه فالمُسْتَمْسِكونَ بِهِ مُسْتَمْسِكونَ بِحَبْلٍ غيرِ مُنْفَصِـــمِ

دعا أي طلَبَ **إلى الله** أي إلى دينِهِ -وهو الإسلام- عبادَهُ، كما قالَ تعالى له: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾[2] أي إلى الإسْلام، **فالمُسْتَمْسِكونَ بِه** أي فالمُعْتَصِمونَ بالنَّبي فيما دعاهُم إليهِ، **مُسْتَمْسِكونَ بِحَبْلٍ** أيْ بسبَبٍ **غيرِ مُنْفَصِمٍ** -بالفاءِ- أيْ غيرِ مُنْقَطِعٍ، وهذا مأخوذٌ مِن قولِهِ تعالى: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِٱلطَّـٰغُوتِ وَيُؤْمِن بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا﴾[3].

---

(١) هو الإمام يحيي بن شرف النووي، الشافعي، أبو زكريا، محيي الدين (٦٣١-٦٧٦ هـ) علّامة بالفقه والحديث، من أشهر تصانيفه «شرح صحيح مسلم»، و «رياض الصالحين» و «الأربعون النووية»، و «تهذيب الأسماء واللغات»، و «المجموع شرح المهذب» في الفقه الشافعي، و «منهاج الطالبين»، والكثير غيرها.

(٢) سورة النحل - من الآية ١٢٥

(٣) سورة البقرة - من الآية ٢٥٦

٣٨- فــــاقَ النَّبِيِّينَ في خَلْقٍ وفي خُلُقٍ   ولَمْ يُدَانوهُ في عِلْمٍ ولا كَـــــرَمِ

فاقَ النَبيينَ كُلَّهُم، كغيرِهِم المَفْهوم بالأَولى، **في خَلْقٍ** -بفَتْحِ المُعْجَمةِ- أيْ صورةٍ وشَكْلٍ ولونٍ وغَيرِها، **وفي خُلُقٍ** -بضَمِّ المُعْجَمةِ- وهو ما طُبِعَ عليهِ مِن الخِصالِ الحَميدَةِ، **ولَمْ يُدانوهُ** أي يُقارِبوهُ **في عِلْمٍ ولا كرَمٍ**، كما تَشْهَدُ لِذلِكَ الأدِلَّةُ المَعْروفَةُ، وهذا إِخْبارٌ بِالواقِعِ فليسَ فيهِ تَنْقيصٌ لأحَدٍ مِن النَّبيينَ. و«لا» زائِدَةٌ لِتأكيدِ النَّفي.

٣٩- وكُلُّهُمْ مِنْ رَسُـــــولِ اللهِ مُلْتَمِسٌ   غَرْفاً مِنَ البَحْرِ أَوْ رَشْفاً مِنَ الدِّيَـمِ

وكُلُّهمْ من رَسُولِ الله مُلْتَمِسٌ، أيْ آخِذٌ ممَّا أُوتيه مِن العِلْمِ والحِكْمَةِ في علمِ الله تعالى، **غَرْفاً من البَحْرِ، أو رشْفاً** -أي مصَّاً- **من الدِّيَمِ**، جمْعِ «ديمَةٍ»، وهي المَطَرُ الدَائمُ[١].

و «مِن رسولِ الله» مُتَعَلِّقٌ بـ «مُلْتَمِسٌ»، و «مِن» فيهِ وفيما بعدَهُ للابتداءِ، و «غَرْفاً» مفْعولُ «مُلْتَمِسٌ»، و «أو» لِلتَقْسيمِ.

ونظَرَ في قولِهِ «مُلتَمِسٌ» إلى لفْظِ «كُلُّ»، وعطَفَ عليهِ -نظَراً لِمَعْناها[٢]- قولَهُ:

---

(١) قال الباجوري: وقوله «غرفا من البحر أو رشفا من الديم» أي حال كون بعض الملتمسين مغترفا من البحر، وبعضهم مرتشفا من الديم، فهو إشارة إلى اختلاف أحوال الملتمسين، فأولوا العزم مثلا أكثر التماسا من غيرهم، ... والمراد من البحر والديم هنا علمه وحلمه صلى الله عليه وسلم، ... وإنما عبر في جانب البحر بالغرف، وفي جانب الديم بالرشف، لأن الغرف مناسب للبحر لكثرته دون الديم، لأنها تجري على وجه الأرض فلا يجتمع منها ماء غالبا حتى يغترف.

(٢) أي معنى الجمع في لفظ «كل»، فعطف «واقفون» على «ملتمس».

٤٠- ووَاقِفُـــــــــونَ لَدَيهِ عِنْدَ حَدِّهِمُ   مِنْ نُقْطَةِ العِلْمِ أو مِن شَكْلَةِ الحِكَمِ

وواقفونَ لَديهِ أي عِنْدَ رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم، **عِنْدَ حدِّهِمُ** -بالكَسْرِ والإشْباعِ- أي غايتِهم، **من نُقْطَةِ العِلْمِ** أي عِلْمِ اللهِ تعالى، **أو من شَكْلَةِ**[١] **الحِكَمِ** جمْعُ «حِكْمَةٍ» وهي صوابُ الأمْرِ وسَدادُهُ.

والغَرَضُ من البيتِ أنَّ غايةَ ما أُوتوهُ من العِلْمِ والحِكْمَةِ مَبْدَأٌ لِلنَّبيِّ صلى اللهُ عليه وسلَمَ على الجَميعِ. وناسَبَ بـ «الشَكْلَة» «النُقْطَة»، ولِزيادةِ التَّفَهُّمِ بها على النُقْطَةِ خصَّها بالحِكْمَةِ[٢].

والظَّرْفانِ مُتَعَلِّقانِ بـ «واقِفونَ»، ويجوزُ أنْ يكونَ الثاني بدَلاً من الأوَّلِ، و«مِن» لبيانِ «حدِّهم»، و«أو» للتَّقسيمِ.

٤١- فهُوَ الذي تمَّ معْنَـــــــاهُ وصُورَتُهُ   ثُمَّ اصْطَفَاهُ حبِيباً بــــــارِئُ النَّسَمِ

فهو الذي تمَّ أي كمُلَ **معْناهُ وصورتُهُ**[٣]، أي باطِنُهُ في الكَمالاتِ وظاهِرُهُ في الصِّفاتِ، **ثُمَّ اصْطَفاهُ** أي اخْتارَهُ **حبيباً** لهُ، **بارِئُ** أي خالِقُ **النَّسَمِ** جمْعُ «نَسَمَةٍ» وهي الإنسانُ. و«ثُمَّ» للتَّرتيبِ في الإخبارِ.

---

(١) الشكلة تُطلق على إحدى الحركات التي تضبط بها الحروف، كالكسرة والضمة وغيرها.

(٢) قال الإمام الباجوري في ذلك: وإنما خص النقطة بالعلم، والشكلة بالحِكَم، لأن النقطة تميز الحروف المشتبهة الصور، والعلم خاصته التمييز، لأنه صفة تقتضي تمييزا لا يحتمل النقيض بوجه، والشكلة بها يضاف الحُكم لصاحبه مع زوال اللبس والاختلال، والحكمة فائدتها وضع الشيء في المكان الذي يستحقه على أكمل وجه لئلا يختل النظام.

(٣) فالمعنى يرجع إلى الخُلُق، والصورة ترجع إلى الخَلْق.

٤٢- مُنَزَّهٌ عَن شَريكٍ في مَحَاسِنـــــــهِ فَجَوهَرُ الحُسْنِ فيهِ غيرُ مُنْقَسِــــمِ

مُنَزَّه أي مُبْعَدٌ **عَن شريكٍ** لهُ **في مَحاسِنِه**، معْنىً وصورةً، و«محاسنُ» جمْعُ «حُسْنٍ» على غيرِ قياس، أو جمْعُ «مَحْسِنٍ» بمَعْنى «حَسَن»، **فجَوهَرُ الحُسْنِ** الموجودِ **فيه**، **غيرُ مُنْقَسِم** بينَهُ وبينَ غيرِه من النّاسِ، لاخْتِصاصِه به، بخِلافِ حُسْنِ سائرِ الناس فإنَّهُ مُنْقَسِمٌ بينَهُم، ومنهُ حُسْنُ يوسُفَ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ، فإنَّهُ كما في مُسْلِمٍ: (أُعْطِيَ شطْرَ الحُسْنِ)[1] أي نِصْفَهُ[2].

و«في محاسِنِه» تُنازِعُهُ «مُنَزَّه»، و«شَريكٌ».

٤٣- دَعْ ما ادَّعَتْهُ النَّصــــارَى في نَبِيِّهِمُ واحْكُمْ بِما شِئْتَ مَدْحاً فيهِ واحْتَكِمِ

دعْ أي اترُكْ في مدْحِ النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم **ما ادَّعَتْهُ النَّصارى في نبِيِّهِمُ** -بالكَسْرِ والإشْباعِ- أي عيسى عليهِ السَّلامُ، من قولِهم كما قالَ اللهُ تعالى عنْهُم: ﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَارَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾[3].

واحْكُم أي اقْضِ **بما شِئْتَ مدْحاً** -تمييز- أي ثناءً حسَناً **فيه**، أي في النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلم، وأكَّدَ ذلِكَ بقولِهِ **واحْتَكِم**، أي وخُذْ في مدحِهِ حُكْمَكَ، ولا

---

(١) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السماوات وفرض الصلوات، بسنده عن أنس بن مالك، وفيه (... ثم عرج بي إلى السماء الثالثة، فاستفتح جبريل فقيل: مَنْ أنت؟ قال: جبريل، قيل: ومَنْ معك؟ قال: محمد صلى الله عليه وسلم، قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه، ففتح لنا، فإذا أنا بيوسف صلى الله عليه وسلم، إذا هو قد أعطي شطر الحسن..).

(٢) يقول الإمام الباجوري في ذلك: وإنما لم يفتتن به صلى الله عليه وسلم كما افتتن بيوسف عليه السلام، لأن جماله صلى الله عليه وسلم ستر بجلاله، فلم يُمكِّن أحدا أن يتأمل فيه حتى يفتتن به.

(٣) سورة التوبة - من الآية ٣٠

تغلُ فيهِ إلى ما هو مُمْتَنِعٌ[1]. وقولُهُ «فيه» تُنازِعُهُ «احْكُمْ» و«مدْحًا».

٤٤- وانْسُبْ إلى ذَاته ما شِئْتَ من شَرَفٍ   وانْسُبْ إلى قَدْرِهِ ما شِئْتَ مِنْ عِظَمِ

وانْسُبْ أيْ أضِفْ **إلى ذاتِهِ** الكريمَةِ، **ما شِئْتَ من شَرَفٍ** أي عُلوٍّ ورِفْعَةٍ، **وانْسُبْ إلى قَدْرِهِ** أي تعْظيمِهِ **ما شِئْتَ من عِظَمٍ**، أي تعْظيمٍ.

و«مِن» في المَوضعينِ لبيانِ الجِنْسِ أو للتَّبعيضِ، وخَصَّ الذَّاتَ بالشَّرَفِ لمُناسَبَتِها له في العُلوِّ، لأنَّها مُدْرَكَةٌ بالبَصَرِ كالمَكانِ العالي، والقَدْرَ بالعِظَمِ لمُناسَبَتِهِ لَهُ في عدَمِ النهايةِ والإحاطَةِ. وعَلَّلَ ذلكَ بقولِه:

٤٥- فإنَّ فَضْلَ رسُـــــولِ اللهِ ليسَ لَهُ   حدٌّ، فيُعْرِبَ عنْهُ نــــــاطِقٌ بِفَمِ

فإنَّ فضْلَ رسولِ اللهِ ليسَ لهُ حدٌّ أي غايةٌ، **فيُعْرِبَ** -بالنَّصْبِ جواباً للنَّفي- أي فيُفْصِحَ **عنْهُ ناطِقٌ**، أي مُتَكلِّمٌ **بِفَمٍ**.

(١) وهذا مأخوذ من قوله صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي رواه الإمام البخاري في كتاب الأنبياء من صحيحه، بسنده عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: (سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم، فإنما أنا عبده فقولوا عبد الله ورسوله). والإطراء هو المدح بالباطل، وعبر شيخ الإسلام العلامة زكريا الأنصاري عن ذلك المعنى بقوله «ولا تغل فيه إلى ما هو ممتنع»، وفي تعليق له على هذا الحديث قال الحافظ ابن حجر العسقلاني في فتح الباري: «قوله: (وقولوا عبد الله) في رواية مالك: «فإنما أنا عبد الله فقولوا»، قال ابن الجوزي: لا يلزم من النهي عن الشيء وقوعه لأنا لا نعلم أحدًا ادَّعى في نبينا ما ادَّعته النَّصارى في عيسى، وإنما سببُ النهي فيما يظهر ما وقع في حديث معاذ بن جبل لما استأذن في السجود له فامتنع ونهاه، فكأنه خشي أن يبالغ غيرُه بما هو فوق ذلك، فبادر إلى النهي تأكيدًا للأمر». وكل نهي عن المدح إنما هو من هذا القبيل، وإلا فهو صلى الله عليه وسلم قد سمع مدحه وأقرَّه.

والمَعْنى لا حدَّ لهُ في الواقعِ[1]، فلا يُفْصِحُ عنْهَ اللِّسانُ، وعَبَّرَ عنْهُ بالفَمِ، لأنَّهُ مَحلُّهُ، وذكَرَ «الفَمَ» بعْدَ «ناطِق» للتَّعميمِ في كُلِّ ناطِقٍ من عربيٍّ وعَجَمي، كنَظيرِهِ في ذِكْرِ (في الأرضِ) بعدَ (دابَّةٍ)، و(بِجَناحيْهِ) بعدَ (طائِرٍ) في آيةِ ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾[2].

٤٦- لَوْ ناسَبَتْ قَدْرَهُ آيــــاتُهُ عِظَماً   أحْيـا اسْمُهُ حينَ يُدْعَى دارِسَ الرِّمَمِ

لو ناسَبَتْ قَدْرَهُ آياتُهُ عظَماً أيْ في العِظَمِ، **أحْيَا اسْمُهُ حينَ يُدْعَى** أي يُنادَى بِهِ، **دارِسَ** -بالنَّصبِ مفْعولُ «أحيا»- وهو بمَعْنى مدْروسِ **الرِّمَمِ** أي العِظامِ البالية، ودُروسُها زيادَةٌ في البِلى، أي أحيا اسْمُهُ ببَرَكَتِهِ ذلكَ حينَ يُدْعى بِهِ لإحيائِهِ، كأنْ يُقالَ: «يا اللهُ! بِمُحَمَّدٍ النَّبي أحْيِّ هذا» فيَحْيا، فيَكونُ الإحْياءُ المَذْكورُ من آياتِهِ.

والمَعنى: لو ناسَبَتْ قدْرَهُ في العِظَمِ آياتٌ لهُ، كانَ منها الإحياءُ المَذْكورُ، لأنَّهُ أعْظَمُ آيةٍ، وبِهِ تكونُ الآياتُ مُناسبَةً لِقَدْرِهِ الذي هو أعْظَمُ قَدْرٍ، لكنَّ اللهَ تعالى لم يجْعَلِ الإحياءَ المَذكورَ مِن آياتِهِ فليسَتْ كقَدْرِهِ في العِظَمِ، وإنْ كانَ منْها القُرآنُ المَتْلوُّ، وسيأتي قولُ الناظمِ فيه: «آياتٌ حقٍ من الرَّحْمَنِ مُحْدَثَةٌ»، وقولُهُ في النَّبي: «وأنَّهُ خيرُ خلْقِ اللهِ كُلِّهِمِ».

وأنْتَ خبيرٌ بأنَّهُ لا يلْزَمُ من جعْلِ الإحياءِ من آياتِهِ أنْ تكونَ آياتُهُ مُناسبَةً

---

(١) من لطيف ما قيل في ذلك ما نقله الإمام الباجوري عن العارف بالله الشيخ علي وفا، في قول الله تعالى ﴿وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلأُولَىٰ﴾ [سورة الضحى - الآية ٤] أن معناه: إن اللحظة المتأخرة خير لك من اللحظة المتقدمة، لأنه صلى الله عليه وسلم يترقى في المتأخرة إلى كمالات زائدة عما ترقى إليه في المتقدمة.

(٢) سورة الأنعام - من الآية ٣٨

لقَدْرِه، إلا أنْ يُريدَ حينئذ مجْموعَها، إذِ المُناسِبُ لِقَدْرِه إنَّما هو إحْياؤُهُ فقط، ولا يُنافي ما تقرَّرَ جعْلُ الإحياءِ لعيسى عليهِ السَّلامُ، فتَأمَّلْ[1].

و«عظَماً» منْصوبٌ بنَزْعِ الخافِضِ كما تقرَّر، أو بأنَّهُ تمييزٌ مُحوَّلٌ مِن الفاعِلِ وهو «آياتُهُ»، أو المَفْعولِ وهو «قدْرَهُ»، وإضافَةُ «دارِسَ» للْبيانِ، وهي من إضافَةِ الصِّفةِ إلى الموصوفِ.

٤٧- لم يمْتَحِنَّا بِما تَعْيا العُقـــولُ بِهِ حِرْصاً علينـــا، فلَمْ نرْتَبْ، ولَمْ نَهِمِ

لمْ يمْتَحِنَّا أي يبْتَلِيَنَا في التَّكْليفِ والتَّفْهيم **بما تعْيَا العُقُولُ بِه**، أي بما لَمْ تَهْتَدِ لوجْهِهِ، **حِرْصاً علينا** أنْ لا نَضلَّ، **فلَمْ نرْتَبْ** أي نشُكَّ فيما أتانا بِهِ، **ولَمْ نَهِمِ** أي نتَحيَّرْ فيهِ، بلْ نظُنُّهُ أو نتَيَقَّنُهُ.

(١) ويلاحظ هنا -كما أشار إلى ذلك الباجوري في شرحه- أن الكلام في إحياء اسمه للموتى حين يُدعى به، وهذا كما لم يجعل من آياته صلى الله عليه وسلم، لم يجعل من آيات عيسى عليه السلام، وإنما الذي جعل من آيات عيسى إحياؤه الموتى بإذن الله.
ومقصود الإمام البوصيري هنا -والله أعلم- أن الله تعالى لم يُعْطِ النبيَّ صلى الله عليه وسلم كُلَّ معجزاته في الدنيا، لأنه ادخر له المقامَ المحمودَ الذي ينفرد به عن الخلائق من أنبياء ومرسلين وشهداء وصالحين وغيرهم يوم القيامة، وقد كان ذلك لحكمة ربانية علوية، ولو أن الله تعالى أعطاه من المعجزات ما يتناسب مع كونه خاتم الأنبياء والمرسلين وسيد ولد آدم أجمعين، لكان من بينها إحياء الموتى بذكر اسمه صلى الله عليه وسلم.
وقد اقتضت حكمة الله تعالى أن لا يُظهِرَ كل الآيات في الدنيا ليبقى ليوم النشور الشيءُ الكثير، وليس ذلك في حق مقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فحسب، بل حتى في حق القرآن الكريم.
يقول ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعاً﴾ [سورة الرعد - من الآية ٣١]:
«يقول تعالى مادحاً للقرآن الذي أنزله على محمد صلى الله عليه وسلم ومفضلاً له على سائر الكتب المنزلة قبله: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾ أي: لو كان في الكتب الماضية كتاب تسير به الجبال عن أماكنها، أو تقطع به الأرض وتنشق، أو تكلم به الموتى في قبورها، لكان هذا القرآن هو المتصف بذلك دون غيره، أو بطريق الأولى أن يكون كذلك».

وكانَ صلى اللهُ عليه وسلَّمَ يضْربُ الأَمْثالَ بالمحْسوساتِ، ليتَضِّحَ ما يخْفى عن بعْضِ الناسِ إدْراكُهُ، حِرْصاً على هدايتِهِم، أخْذاً مِن قولِهِ تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَابَ تِبْيَاناً لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾[١]، وقولِهِ: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾[٢]. وقولُ النَّاظِمِ «ولمْ نَهِمِ» مِن عطْفِ العامِ على الخاصِ.

٤٨- أعْيَا الوَرَى فهْمُ معْنَاهُ، فَلَيْسَ يُرَى في الْقُرْبِ والبُعْدِ فيه غَيْرُ مُنْفَحِمِ

أعْيَا الوَرَى أي أعْجَزَ الخَلْقَ **فهْمُ معْنَاهُ**، أي حالَهُ الذي خصَّهُ اللهُ تعالى بِهِ من المَعارِفِ الإلَهيةِ، والتَخَلُّقِ بالصِّفاتِ الرَّبانيةِ، **فَلَيْسَ يُرَى في القُرْبِ والبُعْدِ** منْهُ، **فيه** -ببناءِ «يُرَى» للمَفعولِ وهو- **غيرُ مُنْفَحِمٍ**، أي غيرُ عاجزٍ عن إدْراكِهِ. والمَعْنى أنَّ كُلَّ من قَرُبَ أو بَعُدَ مِنْهُ، عاجزٌ عن إدْراكِ صِفاتِهِ[٣].

وما بعْدَ «ليسَ» مُفسِّرٌ لِضَميرِ الشَأنِ فيها، و«فيهِ» مُتَعَلِّقٌ بـ «مُنْفَحِم»، والضَّميرُ في «فيهِ» وفي «معْنَاهُ» للنَّبي صلى اللهُ عليهِ وسلَّمَ.

وقَدْ شبَّهَهُ في عدَمِ إدْراكِهِ، بقولِهِ:

٤٩- كالشَّمْسِ، تَظْهَرُ لِلْعَيْنَينِ مِنْ بُعُـدٍ صغيرَةً، وتُكِلُّ الطَّرْفَ مِنْ أَمَـمِ

كالشَّمْسِ أي هو كالشَّمْسِ حالَتَيْ القُرْبِ والبُعْدِ منْها، فإنَّها **تظْهَرُ للعَيْنَينِ مِن بُعُدٍ** -بضَمِّ العَينِ، لُغَةٌ في سُكونِها- **صغيرةً** قدْرَ المِرآةِ، وهي حالٌ من فاعِلِ

(١) سورة النحل - من الآية ٨٩
(٢) سورة النحل - من الآية ٤٤
(٣) أي فلم يُحِطْ بوصفه والوقوفِ على حاله أحدٌ.

«تظْهَرُ»، وجُمْلَةُ «تظْهَرُ» مُفَسِّرَةٌ لوجْهِ الشَّبَهِ أو حالٌ من «الشَّمْسِ»، وعَطَفَ على «تظْهَر» قولَهُ **وتُكلُّ الطَّرْفَ** -بضَم التَّاء- أي تُعْيي البَصَرَ عن رُؤْيتِها، **من أَمَم** -بفَتْحِ الهَمْزَةِ- أي مِن قريبٍ منْها، لأنَّها لكِبَرِها جِدّاً، تكادُ تخْطَفُ البصَرَ وتُعْميه.

وقَدْ قيلَ إنَّها قدْرُ كُرَةِ الأَرْضِ مِئةَ مرةٍ ونيِّفا[1] وستينَ مرةٍ، وقيلَ قدْرُ الدُّنيا، فهي لا تُدْرَكُ بِكَمالِها حالتَيْ القُرْبِ والبُعْدِ منْها وإنْ شُوهِدَتْ صورتُها، كَذلِكَ النَّبيُّ صلى الله عليه وسَلَّمَ لا يُدْرَكُ مَعْناهُ وإنْ شُوهِدَتْ صورتُهُ.

وبُعْدُ الشَّمْسِ يكونُ حالتَيْ طُلوعِها وغُروبِها، وقُرْبُها يكونُ في غيرِ ذلِكَ، وقيلَ: بُعْدُها واقِعٌ مُطلَقاً وقُرْبُها فَرْضٌ. و«مِن» لابْتِداءِ الغايةِ.

٥٠- وكَيفَ يُدْرِكُ في الدُّنيــــا حقِيقَتَهُ   قومٌ نيــــامٌ، تسَلَّوْا عنْهُ بالحُلُمِ

وكَيفَ لِلاستِفهامِ الإنْكاري، أي لا **يُدرِكُ في الدُنيا حَقيقَتَهُ** أي مَعْناهُ، **قومٌ نيامٌ** أي غافِلونَ محْجوبونَ عن ذلِك، **تسَلَّوْا عنْهُ** أي عن النَّبي صلى الله عليه وسلم، أي عنِ النَّظَرِ في حقيقَتِهِ، **بالحُلُم** -بضَم اللام لُغَةٌ في سُكونِها- أي قنَعوا برُؤيتِهِ في النَّومِ، أما في الآخِرةِ فيظْهَرُ لِكُلِّ الخَلْقِ قدْرُه ومَنْزِلَتُهُ.

وأَصْلُ «تسَلَّوا» تَسَلَّووا، قُلِبَتْ الواو الأُولى ألفاً لِتَحَرُّكِها، وانْفِتاحِ ما قبْلَها، ثُمَّ حُذِفَتْ لالْتِقاءِ الساكِنينِ.

---

(١) «النيِّف» ما زاد عن العشرة وكان من واحد إلى ثلاثة، أما ما كان من أربعة إلى تسعة فهو «بضع».

٥١- فَمَبْلَغُ العِلْمِ فيهِ أنَّهُ بَشَــــرٌ وأَنَّهُ خَيْرُ خَلْقِ اللَّهِ كُلِّهِــــمِ

فمَبْلَغُ العلْمِ أي غايةُ بُلوغ عِلَم الخَلْقِ **فيهِ** على الجُمْلَةِ، **أنَّهُ بشَرٌ** من النّاسِ، **وأنَّهُ خيرُ خلْقِ اللهِ كلِّهِم**[1]، أي مخْلوقاتِهِ من المَلائكةِ والإنْسِ والجِنِّ وغيرِهِم.

وفائدَةُ ذكْرِ «بشَرٌ» دفْعُ توهُّمِ أنَّهُ ملَكٌ، بناءاً على أنَّ خيرَ الخَلْقِ لا يكونُ إلا مَلَكاً، كقولِهِ تعالى حِكايةً عن النِّسوةِ: ﴿مَا هَذَا بَشَراً إِنْ هَذَآ إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾[2].

٥٢- وَكُلُّ آيٍ أَتَى الرُّسْلُ الكِرَامُ بِهَــا فإنَّمَا اتَّصَلَتْ مِنْ نُــــورِهِ بِهِمِ

وكُلُّ آيٍ جمْعُ «آيةٍ»، أي مُعْجِزَةٍ **أتَى الرُّسْلُ الكِرامُ بها**، ولا شكَّ أنَّها لهُم أنوارٌ يُهتدى بها، **فإنَّما اتَّصَلَتْ من نُورِهِ** -الذي أُوتيَهُ من عِلْمِ اللهِ- **بِهِم**، أي فنورُهُم الذي فُضِّلوا بهِ ناشِيءٌ من نُورِهِ.

و«مِن» لابْتِداءِ الغايةِ، والباءُ للإلصاقِ، وهُما مُتَعَلِّقانِ بـ «اتَّصَلَتْ». وعَلَّلَ ما ذكَرَهُ بقولِهِ:

---

(١) ينقل الدكتور زكي مبارك في كتابه «المدائح النبوية» ما أورده الرواة في شأن هذا البيت، حيث قالوا إن الإمام البوصيري لما أنشأ هذه القصيدة رأى النبي صلى الله عليه وآله وسلم في المنام، فأنشدها بين يديه إلى أن بلغ قوله: فمبلغ العلم فيه أنه بشر، ثم توقف ولم يتمكن من إكمال البيت، فأكمله له النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وقال له: «قل: وأنه خير خلق الله كلهم»، فأدرج البوصيري هذا الشطر الذي قاله النبي صلى الله عليه وسلم في البيت المتقدم، كما أنشأ منه بيتا آخر درج المادحون في مجالسهم على ترديده بعد كل بيت من أبيات القصيدة، وهو:

مولاي صلِّ وسلِّم دائما أبدا على حبيبِك خيرِ الخَلقِ كُلِّهِمِ.

(٢) سورة يوسف - من الآية ٣١

٥٣- فإنَّهُ شمْسُ فَضْلٍ هُمْ كوَاكِبُهـــا   يُظْهِرْنَ أنْوَارَهـــا للنَّاسِ في الظُّلَمِ

فإنَّهُ لزيادَةِ فضْلِهِ **شمْسُ فضْلٍ، هُمْ كواكِبُها**، ونورُها مُسْتَفادٌ مِن نورِ الشَّمْسِ، **يُظْهِرْنَ** أي الكواكِبُ، **أنْوارَها** أي الشَّمْسِ **للنَّاسِ في الظُّلَمِ**، لأنَّها حالَ غيبَتِها -كما قيلَ تحْتَ الأرْضِ، وهي أكْبَرُ مِنْها كما مَرَّ- يفيضُ نورُها على الكواكِبِ بعْدَ ارْتِفاعِها، فإذا ظهَرَتْ لا يبْقَى للكواكِبِ نورٌ[1].

والنَّبيُّ صلى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لمَّا ظهَرَ، نسَخَتْ شريعَتُهُ شرائِعَ مَن قبْلَهُ مِن الأنْبياءِ عليهِمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ.

٥٤- أكْرِمْ بِخَلْقِ نَبيٍّ زانَـــــــهُ خُلُقٌ   بالحُسْنِ مُشْتَمِلٍ، بِالبِشْرِ مُتَّسِـــمِ

أكْرِمْ فعْلُ أمْرٍ معناهُ التَّعَجُّبُ، وفاعِلُه **بخَلْقِ نَبيٍّ** -بزيادَةِ الباءِ لُزوماً إصْلاحاً للَّفْظِ، لأنَّ الأمْرَ بغَيرِ لامٍ لا يكونُ فاعِلُهُ ظاهِراً، وسَهَّلَ ظُهورَهُ كَونُ عامله تعَجُّباً في المَعْنى لا أمْراً- أي ما أكْرَمَ خَلْقُهُ عند الله، **زانَهُ خُلُقٌ** أي حسَّنَهُ بِمَعْنى زادَهُ حُسْنا، قالَ الله تعالى له: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[2].

بالحُسْنِ مُتَعَلِّقٌ بقولِهِ **مُشْتَمِلٍ** -بالجَرِّ- صِفَةُ نَبيٍّ، وكذا قولُهُ: **بالبِشْرِ مُتَّسِمِ**، أي مُتَّصِفٌ ببَشاشَةِ الوجْهِ والسُّرورِ بِهِ، وهو أيضاً:

---

(١) يقول الباجوري في شرحه على هذا البيت: وظاهر هذا البيت أنه صلى الله عليه وسلم مُرسَلٌ للأمم السابقة، لكن بواسطة الرسل، فهم نوابٌ عنه صلى الله عليه وسلم، وبهذا قال الشيخ السبكي ومَنْ تبعه، أخذاً من قوله تعالى ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَاقَ ٱلنَّبِيِّينَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾ [سورة آل عمران - من الآية ٨١].

(٢) سورة القلم - الآية ٤

٥٥- كالزَّهْرِ في تَرَفٍ، والبَدْرِ فـــي شَرَفٍ والبَحْرِ في كَرَمٍ، والدَّهْرِ فـــي هِمَمِ

كالزَّهْر وهو نَوْرُ النَّباتِ[١]، **في ترَف** أي تنَعُّم، قالَ أنَسٌ رضي الله تعالى عنه: «ما مَسَسْتُ حريراً، ولا دِيباجاً أَلْينَ مِن كفِّ النَّبي صلى الله عليه وسَلَّمَ»[٢]، **وكالبَدْر** أي القَمَرِ ليلَةَ كمَالِه، وهي ليلَةُ الرابعَ عشْر، **في شرَفٍ**، وشَرَفُهُ على سائِرِ الكواكِبِ اللَّيلية، وشَرَفُ النَّبيِّ صلى الله عليه وسَلَّمَ على سائِرِ الخَلْق.

وكالبَحْرِ في كَرَم، قالَ أنَسٌ رضي الله تعالى عنه: ما سُئِلَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلَّم على الإسلام شيئاً إلا أعْطاهُ، قال: فسَأَلَهُ رجُلٌ غنَماً بينَ جبَلَيْن فأعْطاهُ إيّاهُ، فأتى قومَهُ فقالَ: يا قوم أسْلموا فوالله إنَّ مُحَمَّداً ليُعْطي عطاءَ مَن لا يخافُ الفَقْرَ[٣]. ومن كرَم البَحْرِ ما ذكَرَهُ الله تعالى في آية ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً﴾[٤].

والدَّهْرِ أي الزمَنِ، **في هِمَم** جمْعُ «هِمَّة» -بكَسْرِ الهاءِ وفَتْحِها- وهي العَزْمُ[٥]، ومِن هِمَمِ الدَّهْرِ ما ذكَرَهُ مُعاويةُ[٦] رضي الله تعالى عنه بِقولِهِ: «مَن

---

(١) يقال «أنار الشجر نوْرا» إذا أزهر.

(٢) رواه الشيخان: البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب صفة النبي صلى الله عليه وسلم، ومسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب طيب رائحة النبي صلى الله عليه وسلم ولين مسكه.

(٣) رواهُ الشيخانِ إلا صدْره فمُسْلمٌ: مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب ما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا قط فقال لا، وكثرة عطائه.

(٤) سورة النحل – من الآية ١٤

(٥) الهمة هي العزم على الشيء والإرادة له، ونسبة الهمة إلى الدهر على عادة العرب، فإنهم يجعلون للدهر عزمات وإرادات ويشبهون الممدوح به في تلك العزمات والإرادات، وسبب ذلك أن الحادثات الدقيقة إنما تقع في الدهر فينسبونها إليه.

(٦) هو الصحابي معاوية بن صخر بن حرب بن أمية، أبو سفيان (٢٠ ق.هـ-٦٠ هـ) مؤسس الدولة الأموية في الشام وأحد عظماء الفاتحين في الإسلام، وأول مسلم ركب بحر الروم للغزو. أسلم يوم الفتح سنة ٨ هـ وتعلم الكتابة والحساب فجعله رسول الله صلى الله عليه وسلم في كتّابه.

رفَعْناهُ ارْتَفَعَ، ومن وضَعْناهُ اتَّضَعَ». وهَذِه التَّشبيهاتُ على عادَةِ العَرَبِ، وإلا فهو صلى اللهُ عليه وسَلَّمَ أعْلى من المُشَبَّهِ بِهِ فيما ذُكِرَ، كما هو معْلومٌ من الأَخْبارِ الصَحيحَةِ، وكما أشارَ إليهِ الناظِمُ بعْدُ بِقولِه: «فإنَّ من جُودِكَ الدُنيا وضَرَّتَها»، وهو أيضاً:

٥٦- كأنَّهُ وهْوَ فرْدٌ، مِن جَلالَتِـــــه	في عَسْكَرٍ حينَ تَلقَـــاهُ وَفي حَشَمِ

كأنَّهُ وهو، أي والحالَةُ أَنَّهُ **فردٌ، مِن جلالَتِه** أي عظَمَتِه، كائنٌ **في عسْكَرٍ** أي جيشٍ، **حينَ تلْقاهُ وفي حشَمٍ**، أي خدَمٍ يغْضَبونَ لِغَضَبِه. و«حينَ تلْقاهُ» مُتَعَلِّقٌ بِـ «كأنَّهُ»، و«مِن جلالَتِهِ» عِلَّةٌ لِلتَّشبيهِ المُسْتَفادِ مِن «كأنَّه».

والقَصْدُ تشْبيهُهُ مُفْرَدا بِنَفْسِهِ، مصْحوباً بِعَسْكَرٍ وحَشَمٍ في الهيبةِ والوقارِ[1]، وذَلِكَ في المُشَبَّهِ بِه أعلى.

٥٧- كأنَّما اللُؤلُؤُ المَكْنُـــونُ في صَدَفٍ	مِن مَعْدِنَيْ منْطِقٍ مِنْهُ وَمُبْتَسَـــمِ

كأنَّما اللُّؤلؤُ المكنونُ أي الدُّرُّ المَصونُ **في صدَفٍ**، أي في غِشائِهِ، وهو فيهِ لِكونِ معْدِنِه أحْسَنَ مِنْهُ في غيرِهِ، كائنٌ **مِن معْدَني منْطِقٍ** أي كلامٍ كائنٍ **منْهُ**، أي مِن النَبيِّ صلى الله عليه وسلم، **ومُبْتَسَمٍ** -بِفَتْحِ السينِ- أي محَلِّ ابْتِسامٍ منْهُ، وهو الثَّغْرُ، أي ما تَقَدَّمَ من الأسْنانِ.

(١) فكما أنه صلى الله عليه وسلم يكون له هيبة ووقار إذا كان في عسكر وحشم، فكذلك الحال عندما يكون منفردا بنفسه.

وإضافَةُ «معْدني» للبيانِ، أي مِن كلامِهِ وثغْرِهِ لِحُسْنِهما في غايةٍ، وهذا التَّشْبيهُ عكْسُ ما جرَتْ بِهِ العادَةُ من تشْبيهِ الكَلامِ والثَّغْرِ المَليحيْنِ باللؤْلُؤِ، لِكونِ العَكْسِ المُناسِبِ لِلمَقامِ أبْلَغ، ففي كلامِهِ ترَقٍّ في المَدْحِ، حيثُ جرَى في بيتِ «كالزَّهْرِ في تَرَفٍ» على ما جرَتْ بِهِ العادَةُ، وهُنا على عكْسِهِ.

و «ما» زائدَةٌ كافَّةٌ، و «مِن» في الموضِعَينِ لِلابْتداءِ. ولمَّا مدَحَهُ في حياتِهِ بِما مرَّ، مدَحَهُ بعْدَ وفاتِه صلى الله عليه وسلَّم، فقالَ:

طُوبَـــــى لِمُنْتَشِقٍ مِنْهُ وَمُلْتَثِم	٥٨- لا طِيبَ يَعْدِلُ تُرْباً ضَمَّ أعْظُمَـــهُ

لا طيبَ يعْدِلُ تُرْباً، أي يُساوي تُراباً **ضمَّ أعْظُمَهُ**، من رائِحَتِها الطيِّبَةِ في غايةٍ. قالَ أنَسٌ رضي الله عنه: ما شمَمْتُ عنْبَراً ولا مِسْكاً ولا شيئاً أطْيَبَ مِن ريحِ رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ(١).

طُوبى لِمُنْتَشِقٍ أي شامٍّ **مِنْهُ** بِأنْفِهِ، **ومُلْتَثِم** أي مُعَفِّرٍ مِنْهُ موضِعَ اللِّثام. و «طوبى» مصْدَرٌ من الطيبِ، أو الجَنَّةُ، أو شَجَرَةٌ فيها يسيرُ الراكِبُ في ظِلِّها مِئَةَ عامٍ لا يقْطَعُها.

وهو مرْفوعٌ بالابْتداءِ خبَرُهُ ما بعْدَهُ، أو منْصوبٌ بكونِهِ مصْدَرا بَدَلاً من اللَّفْظِ بِفِعْلِهِ وهو «طابَ»، فهو على الثاني دُعاءٌ لِمَن اسْتَنْشَقَ والْتَثَمَ مِن تِلْكَ التُّرْبَةِ، واللامُ بعْدَها حينَئذٍ لِلبَيانِ، نحْوَ «سُقيا لكَ».

(١) رواه الشيخان: البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب صفة النبي صلى الله عليه وسلم، ومسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب طيب رائحة النبي صلى الله عليه وسلم ولين مسكه والتبرك بمسحه.

ومَعْنى أطيبيَةِ تُرْبَتِهِ صلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ، أنَّها أطيَبُ ريحاً عِنْدَ الله تعالى من غيرِها، أو مُطْلَقاً، لكنَّ أحْوالَ القَبْرِ من الأمُورِ الأُخْرَويةِ لا يُدْرِكُها مِن الأحياءِ إلا من كُشفَ لهُ الغِطاءُ مِن الأولياءِ المُقَرَّبينَ، وأيضاً لا يلزَمُ مِن قيامِ المَعْنى إدْراكُهُ لِكُلِّ أحَدٍ، لجوازِ انْتِفاءِ شرْطٍ أو قيامِ مانِعٍ، وعَدَمُ الإدراكِ لا يَدُلُّ على عَدَمِ المُدْرَكِ، إذ انْتِفاءُ الدَليلِ لا يَدُلُّ على عدَمِ المَدْلولِ[1].

*****

(١) يقول الإمام الباجوري في بيان هذا المعنى: «... ألا ترى أن المزكوم لا يدرك رائحة المسك، مع أنها قائمة به، وقد قال عليه الصلاة والسلام: (القبر أول منزل من منازل الآخرة، فإما روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار)*، ولا شك أن قبره صلى الله عليه وسلم روضة من رياض الجنة، بل أفضلها، وقد قال ايضا عليه الصلاة والسلام: (ما بين قبري ومنبري روضة من رياض الجنة)**، وكل من القبر والمنبر داخل في حكم ما بينهما، أما القبر فللخبر العام الذي ذكر، وأما المنبر فلقوله صلى الله عليه وسلم في آخر الحديث (ومنبري على حوضي، والحوض من الجنة)***، وإذا تقرر كون هذا المكان من الجنة، لم يبق عند العاقل المصدق بالشريعة امتراء في أنه لا طِيبَ يعدله».

وقد كانَ أول من استنشق طيب ترب رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد دفنه ابنتُه الرضيّةُ وبَضْعَتُهُ الزكيةُ السيدة فاطمة الزهراء رضي الله تعالى عنها، وحين استنشقته استشعرت من المعاني ما أشار إليه الإمام البوصيري رضي الله تعالى عنه، فقالت:

ماذا على مَن شمَّ تربةَ أحمد ألا يشمَّ مدى الزمان غواليــا
صُبَّتْ عليَّ مصائب لو أنها صُبت على الأيام عدن لياليا

و «الغوالي» جمع «غالية» وهو طِيبٌ معروف.

* روى صدر هذا الحديث الإمام الترمذي في سننه، كتاب الزهد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، بلفظ: (إن القبر أول منازل الآخرة)، وروى عجزه في كتاب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، بلفظ: (إنما القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار).

** رواه البخاري في صحيحه، كتاب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة، باب فضل ما بين القبر والمنبر، بلفظ: (ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة*.

*** رواه أحمد في مسنده بلفظ: (إن منبري على حوضي).

الفصل الرابع: في مولده عليه الصلاة والسلام

٥٩- أبَـــانَ مولِدُهُ عنْ طِيبِ عُنْصُرِهِ ‏ ‏ ‏ ‏ يـــا طِيبَ مُفْتَتَحٍ منْهُ، ومُخْتَتَمِ

أبَانَ مولِدُهُ أي كشَفَ **عن طِيبِ عُنْصُرِهِ**، أي خُلوصِ في أصْلِهِ عن رَيبٍ في نسَبِهِ، كما قالَ عليٌّ رضي الله عنه: (ليس فينا سِفاحٌ، كُلُّنا نِكاحٌ من آدَمَ إلينا)[١]، لأنَّهُ صلى الله عليه وسلَّمَ من بني هاشِم، فهُمْ المُرادونَ بِمَولِدِهِ، أي مكانِ ولادَتِهِ مجازا.

يا طِيبَ مُفْتَتَحٍ وفي نُسْخَةٍ «مُبْتَدَأ» **منْهُ** العُنْصُرُ، **ومُخْتَتَمِ** بهِ العُنْصُرُ، فقَدْ افْتُتِحَ بهاشِمٍ[٢]، واخْتُتِمَ بالنَّبي صلى الله عليه وسلَّمَ، وفي مُسْلِم: (إنَّ الله اصْطَفى كِنانَةَ من ولَدِ إسْماعيلَ، واصْطَفى قُريشاً من كنانَةٍ، واصْطَفى من قُريشٍ بنى هاشِمٍ، واصْطَفاني من بنى هاشِمٍ)[٣].

و«عن» لِلْمُجاوَزَةِ، أي أنَّ مولِدَهُ صلى الله عليه وسلم صيَّرَ طِيبَ عُنْصُرِهِ مُجاوِزاً كُلَّ رَيبٍ، والمُرادُ بِالنِّداءِ في «يا طِيبَ» التَعَجُّبَ، أي يا مُتَعَجِّباً تأمَّل طِيبَ مُفْتَتَحٍ مِنْه ومُخْتَتَمٍ به.

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط، وابن حجر العسقلاني في المطالب العالية، وابن عساكر في تاريخه، بسندهم عن سيدنا علي بن أبي طالب، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: (خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح من لدن آدم إلى أن ولدني أبي وأمي).

(٢) هو رأس بني هاشم وأبوهم، واسمه عمرو، ولقب بهاشم لأنه لما أصابت مكة سنة شديدة واشتد بأهلها القحط والجوع، ارتحل عمرو إلى الشام فاشترى الخبز وعاد به إلى قومه، فأمر بالخبز فهُشِّم في جفان، وأمر بالإبل فنُحِرت وطهي لحمها، وأطعم أهل مكة، فسمي لذلك هاشما.

(٣) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب فضل النبي صلى الله عليه وسلم وتسليم الحَجَر عليه قبل النبوة.

٦٠- يَوْمٌ تفرَّسَ فيهِ الفُرْسُ أنَّهُـــــمُ قدْ أُنْذِرُوا بحُلُولِ البُؤْسِ والنِّقَــمِ

يومٌ أي زمَنٌ، وهو بدَلٌ من «مَوْلِدِه»، أو خبَرُ مُبْتَدأ محْذوفٍ أي «هو»، أي «مولِدُه» -بمَعْنى زمَنِ ولادَتِه- زمَنٌ **تفرَّسَ فيه الفُرْسُ**، وهُم أهْلُ مملَكَةِ فارِسٍ، أي علِموا بالفِراسَةِ **أنَّهُمُ** -بالضَمِّ والإشْباعِ- **قدْ أُنْذِرُوا** أي أُعلِموا **بِحُلولِ البُؤْسِ والنِّقَم** أي الشِّدَةِ والعُقوباتِ بِهِم.

وحُلولُها مِن «حلَّ يحِلُّ» -بالكَسْرِ- أي وجَبَ، أو بِالضَمِّ[1] أي نزَلَ، والمَعْنى أنَّهُ وجَبَ أو نزَلَ عليهِم البُؤْسُ والنِّقَمُ، حيثُ قارَنَ ولادَتَهُ ما ذكَرَهُ النَّاظِمُ بِقولِه:

٦١- وبَــاتَ إيوَانُ كِسْرَى وَهْوَ مُنْصَدِعٌ كشَمْلِ أصْحَـابِ كِسْرَى غيرَ مُلْتَئمِ

وباتَ إيوانُ كِسْرى -بِكَسْرِ الكافِ وفَتْحِها- آخِرِ مُلوكِ الفُرْسِ، أي صارَ إيوانُهُ في اللَّيلَةِ التي وُلِدَ طُلوعَ فجْرِها النَبيُّ صلى الله عليه وسلَّمَ، **وهو مُنْصَدِعٌ** أي مُنْشَقٌّ، وسَقَطَت منْهُ أرْبَعَ عشْرَةَ شُرْفَةً، **كشَمْلِ** أي مجْمَعِ عدَدِ **أصْحابِ كِسْرَى** باتَ **غيرَ مُلْتَئِمٍ**، أي مُجْتَمِعٍ.

و«الإيوانُ» و«الإوانُ» الصُفَّةُ العَظيمَةُ كالأَزَجِ[2]، و«إيوانُ» اسْمُ «باتَ»، و«كشَمْلِ أصْحابِ كِسْرَى» خبَرُها.

---

(١) أي «حلَّ يحُلُّ».

(٢) الإوان والإيوان هو مجلس كبير على هيئة صُفَّة واسعة، لها سقف محمول من الأمام على عقد، يجلس فيها كبار القوم، والأَزَج: بناء مستطيل مقوس السقف.

٦٢- والنَّارُ خامِدَةُ الأَنْفَــاسِ مِنْ أَسَفٍ   علَيهِ، والنَّهْرُ ساهِي العَينِ مِنْ سَدَمِ

والنَّارُ التي يعْبُدونَها **خامدَةُ الأنْفاسِ**، أي ساكِنَةٌ لا لهَبَ لها تِلْكَ اللَّيلَةَ، **مِن أسَفٍ عليهِ**، أي مِن أجْلِ شِدَّةِ حُزْنٍ مِنْهُمْ على انْصِداعِ الإيوانِ، أو على شَمْلِهِم حيثُ تشَتَّتَ، **والنَّهْرُ** الذي بهِ قِيامُهُمْ **ساهِي العينِ** تلكَ اللَّيلَةَ، أي ساكِنٌ عن الجَرَيانِ **مِن أجْلِ سَدَمٍ**، أي حُزْنٍ مِنْهُم على ذلكَ أيضاً.

و«النَّارُ» و«النَّهْرُ» معْطوفانِ على «إيوانٍ»، و«خامِدَةٌ» و«ساهي» على «كشَمْلِ»، على لُغَةِ من جعَلَ إعْرابَ «ساهي» في جُمْلَةِ المَنْقوصِ نصْباً كإعْرابِهِ رفْعاً وجَراً، ويجوزُ رفْعُ كُلٍّ مِن الجُزئين فيما ذُكِرَ على الابْتِداءِ والخَبَرِ، ويكونُ كُلٌّ من الجُمْلَتينِ حالاً، أو معْطوفاً على «باتَ»، كما في قولِهِ:

٦٣- وسَاءَ ســـــاوَةَ أنْ غاضَتْ بُحَيْرَتُها   ورُدَّ وارِدُهـــا بالغَيظِ حِينَ ظَمِي

وسَاءَ ساوَةَ، وهي مدينَةٌ بينَ هَمَدانَ والريِّ من مُدُنِهم[١]، أي أحزَنَ أهْلَها **أن غاضَتْ بُحيرَتُها** -بِضادٍ مُعْجَمَةٍ- أي نقَصَتْ، -وبِصادٍ مُهْمَلَةٍ- أي غارَتْ، والمُرادُ ذهَبَ ماءُ بُحيرَةِ ساوَةَ تِلْكَ اللَّيلَةَ، وهي بُحيرَةٌ عظيمَةٌ طولُها سِتَّةُ أميالٍ وعَرْضُها كذَلِكَ، فتَصْغيرُها للتَّعْظيمِ[٢].

ورُدَّ بالبِناءِ للمَفْعولِ وهو **وارِدُها**، أي وارِدُ بُحيرَةِ ساوَةَ للاسْتِسقاءِ من مائِها، **بالغيظِ** أي بما يغيظُهُ أي يُغْضِبُهُ، **حينَ ظَمي** أي عطِشَ ولَمْ يجِدْ فيها ماءً. والباءُ للمُصاحَبَةِ، وهي و«حينَ» مُتَعَلِّقانِ بـ «رُدَّ»، وياءُ «ظَمي» مُنْقَلِبَةٌ عن همْزَةٍ.

---

(١) تقع بحيرة ساوة في محافظة المثنى جنوب العراق، وكانت ضمن مملكة فارس آنذاك.

(٢) ترجع معاني التصغير في الغالب إلى التقليل والتحقير، لكنه قد يستخدم بغرض التعظيم أيضا كما في قولهم: «فلان دويهية» تصغير «داهية».

٦٤- كَأَنَّ بِالنَّـــــــارِ ما بِالماءِ مِنْ بَلَلٍ حُزْناً، وبِالمَـــاءِ ما بِالنَّارِ مِنْ ضَرَمِ

كَأَنَّ بِالنَّارِ ما بِالماءِ من بَلَلٍ، لِبَرْدِها **حُزْناً، وبِالماءِ ما بِالنَّارِ من ضَرَمِ** أي التِهابٍ، لِحُرْقَتِهِ وذَهابِهِ في تُخوم[1] الأرضِ حُزْناً أيضاً.

و «ما» في المَوْضِعين مَوْصولَةٌ، و «حُزْناً» حالٌ مِن «النَّار»، أي حالةَ كونِها ذاتَ حُزْنٍ، و «مِن» في المَوْضِعينِ لِلبيانِ.

٦٥- والجِنُّ تَهْتِفُ، والأَنْوارُ ســـــاطِعَةٌ والحَقُّ يَظْهَرُ مِنْ مَعْنىً ومِنْ كَلِمِ

والجِنُّ تَهْتِفُ أي تَتَكَلَّمُ[2] -مِن حيثُ لا تُرى- بِولادَتِه لِيلَتَها، **والأَنْوارُ** فيها **ساطِعَةٌ** أي ظاهِرةٌ مُرتَفِعَةٌ أضاءَ لها قُصورُ الشَّام[3]، و «الهَتْفُ» لُغَةً الصَّوتُ، وقيلَ الصوتُ الخَفيّ، **والحَقُّ** وهو أَمْرُ النَّبي **يَظْهَرُ مِن مَعْنىً** لِكلامٍ قارَنَ وِلادَتَه، **ومِن كَلِمٍ** أي كلامٍ بِها.

---

(١) جمع «تُخُم» وهو الحد الفاصل بين أرضين.

(٢) تتكلم حقيقة وليس مجازا، كما ذكره الكثير من كُتَّابِ السيَرِ، وفي شرحه على المواهب اللدنية بالمنح المحمدية يقول الإمام الزرقاني في معرض حديثه عن عجائب ولادته صلى الله عليه وسلم: «.. يعني بذلك ما سُمِع من الجن وغيرهم من بعد ولادته إلى مبعثه من تبشيرهم به ونعيهم الكفر وانذارهم بهلاكه، يهتفون بذلك في كل ناحية، أي ينادون به».
ومن ذلك أيضا ما أورده الباجوري في شرحه، أنه حين ولد صلى الله عليه وسلم هتف هاتف على الحجون، وهو جبل بالمعلاة بمكة، وهو ينشد ويقول:

فأقسِمُ ما أنثى مِن الناس أنجبت ولا ولدتَ أنثى من الناس واحده
كمـــا ولدت زُهرية ذات مفخر مجنبة لؤم القبائل مـــاجده

(٣) روى ابن سعد في طبقاته الكبرى أن أم النبي صلى الله عليه وسلم قالت: (لما ولدْتُهُ خرجَ مِنّي نورٌ أضاء له قصورُ الشام ...).

٦٦- عمُوا وصَمُّوا، فإعْلَانُ البَشَائرِ لَمْ ... يُسْمَعْ، وبَارِقَةُ الإنْذارِ لَمْ تُشَمِ

عمُوا وصَمُّوا -ببنائهما للفاعل أو للمَفْعول- أي الكُفَّارُ عن ذلكَ، حيثُ جحَدوا نُبوَّةَ النَّبي صلَّى الله عليه وسَلَّمَ، **فإعْلانُ** أي فإظْهارُ **البَشائر** المَذكُورةِ بِه صلَّى الله عليه وسَلَّمَ **لمْ يُسْمَعْ** لهُم سماعَ قبولٍ، وقولُ بعْضِهم «لم تُسْمَعْ» بالتَّاءِ الفَوْقية -فأنَّث ضميرَ المُضاف فيه نظَراً للْمُضاف إليه- صحيحٌ لكنْ لا حاجَةَ إليه، **وبَارقَةُ** أي لوامعُ **الإنْذار** بِه **لمْ تُشَمْ** لهُمْ -بالمُعْجمَةِ- أي لمْ ينْظُروها لعَدَمِ التفاتِهم إليها، يُقالُ: «شامَ فلانٌ البَرْقَ» نظَرَ إليه.

٦٧- منْ بعْدِ ما أخْبَرَ الأقْوَامَ كاهِنُهُمْ ... بِأَنَّ دينَهُمُ المُعْوَجَّ لَمْ يَقُمِ

من بعْد، تُنازِعُهُ «عموا» و«صَمُّوا»، **ما** -مصْدَريةٌ- **أخْبَرَ الأقْوامَ** الذينَ عموا وصَمُّوا **كاهِنُهُمْ**، أي كُلُّ كاهنٍ[1] لهم، لما علموهُ **بأنَّ دينَهُمْ** الذي هُم علَيهِ **المُعْوَجَّ**، **لمْ يقُم** -بالبناءِ للمَفعولِ أو للفاعلِ- أي لا قيامَ لهُ معَ وجُودِ النبي صلى الله عليه وسلم، بل ينكسِرُ ويضْمَحِلُّ.

٦٨- وبعْدَ ما عايَنُوا في الأُفْقِ منْ شُهُبٍ ... مُنْقَضَّةٍ وفْقَ ما في الأَرْضِ منْ صَنَمِ

وأُخْبروا بذلكَ أيضاً **بعْدَ ما عاينوا** أي شاهَدوا **في الأُفُق** -بإسْكانِ الفاءِ لُغَةٌ في ضمِّها- أي السَماءِ، **من شُهُبٍ**، جمْعُ «شِهابٍ» وهو شُعْلَةُ نارٍ ساطِعَةٍ

(١) من «كهَن يكهَن كهانة» أي أخبر بالغيب، فالكاهنُ هو مَن كان له تابعٌ من الجن يخبره بأمرِ السماءِ، لاسْتراقه السمعَ، لكن يزيدُ على الكلمةِ الحقِّ مائةَ كذبةٍ.

مُنْقَضَّة أي نازِلَة على الشَّياطِينِ المُسْتَرِقينَ لِلسَّمْعِ مِن المَلائكَةِ في السَّماء[1]، ليلَةَ وِلادَةِ النَّبي صلى اللهُ علَيهِ وسَلَّمَ، **وِفْقَ**[2] **ما في الأَرْضِ من صنَمِ** أي جِنْسِ الصَّنَمِ في سُقوطِهِ تِلْكَ اللَّيْلَة.

و«بعْد» مجْرورٌ عطْفاً على «بعْد» قبْلَهُ[3]، أو منْصوبٌ عطْفاً على محلِّه، و«ما» في المَوْضِعينِ موصولَةٌ، أو نكرَةٌ مَوْصوفَةٌ، و«مِن» بيانٌ لها، فيمْتَنِعُ كونُ «ما» مصْدَرِيةٌ.

وفي إخْبارِهِم بِأنَّ دينَهُم لمْ يقُمْ -بعْدَ عِلْمِهِم مِن كُهّانِهِم بِصِحَّةِ نُبوَّةِ النَّبي صلى الله عليه وسلَّمَ، وبَعْدَ مُعايَنَتِهِم ما ذكَرَ- غايةُ التَّقْبيحِ عليهِم.

٦٩- حتَّى غَدَا عنْ طَرِيقِ الوَحْيِ مُنْهَـزِمٌ   مِنَ الشَّيَاطِينِ، يَقْفُـــو إِثْرَ مُنْهَزِمِ

ولمْ تزَلِ الشُّهُبُ تنْقَضُّ على الشياطين، **حتى غدا** -بِغينٍ مُعْجَمَةٍ- أي ذهَبَ **عن طريقِ الوَحْيِ** وهي السَماء، **مُنْهَزِمٌ** فاعِلُ «غدَا»، ووصَفَهُ بقولِه: **من الشَّياطِين، يقفو** أي يتْبَعُ **إثْرَ مُنْهَزِمٍ** منْهُمْ، وهَلُمَّ جرًّا[4] لِتَتابُعِ الشُّهُبِ المُنْقَضَّةِ عليهِم، ولَمْ تعْهَدِ الكُفّارُ إذ ذاكَ مِثْلَ ذلِكَ.

---

(١) يقول الباجوري في شرحه: وذلك أن الشياطين كانوا يسترقون السمع من السماوات كلها، فلما ولد عيسى عليه السلام منعوا من ثلاث سماوات بسقوط الشهب عليهم، ولما ولد صلى الله عليه وسلم زيد في حراسة السماء، فمنعوا من سائرها بسقوط الشهب عليهم بكثرة، لكن كانوا يقعدون في مقاعد قريبة من السماء بحيث يسمعون صريف الأقلام، أي صوت أقلام الملائكة التي تكتب ما يقع في العالم، ولما بعث صلى الله عليه وسلم منعوا من ذلك بالشهب أيضا، كما قال الله تعالى حكاية عنهم ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَّصَداً﴾ [سورة الجن - الآية ٩].

(٢) أي مثل، والمقصود تشبيه سقوط الشهب من السماء بسقوط أصنام الأرض وانتكاسها ليلة مولد النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

(٣) أي في البيت الذي قبله.

(٤) تعبير يقال لاستدامة الأمر واتصاله.

٧٠- كأَنَّهُمْ -هَرَباً- أبْطَــــــالُ أبْرَهَةٍ ... أو عسْكَرٌ بالْحَصَى مِنْ راحَتَيه رُمِي

كأَنَّهُمْ أي الشَّياطين، **هرَباً** أي في حالِ هربِهم، أي فرارِهم مِنَ الشُّهُب، **أبْطَالُ** أي شُجْعانُ **أبْرَهَةٍ** -بصَرْفِه للوَزْنِ- وهو -بفَتْحِ الهَمْزَةِ والراءِ- ملكُ اليمَنِ، بنى بصَنْعاءَ كنيسَةً ليصرفَ إليها الحاجَّ، فأحْدَثَ رجُلٌ من كنانَةَ فيها، ولَطَّخَ قِبْلَتَها بالعَذِرَةِ[1]، فحَلَفَ أبْرَهَةُ ليَهْدِمَنَّ الكَعْبَةَ، فجاءَ بجيشِه وفيلٍ عظيمٍ مع أفيالٍ إلى مكَةَ، فحين تهيَّئوا للدُّخولِ والهَدْمِ غُشيَ عليهم وولُّوا هاربينَ، ورُموا بحِجارةٍ من سِجِّيلٍ. قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ ٱلْفِيلِ﴾[2] إلى آخرِها.

وعطَفَ على «أبْطالِ» قولَهُ: **أو عسْكَرٌ بالحَصى من راحَتَيْه،** أي باطِني كَفَّي النَّبي صلى الله علَيهِ وسَلَّمَ **رُمِي،** أي العَسْكَرُ، فهَرَبَ مِن رَمي النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم، وذَلِكَ في غزْوَةِ بدَرٍ[3] وفي غزْوَةِ حُنَينٍ[4]. و«بالحَصَى»، و«من راحَتَيه» مُتَعَلِّقانِ بـ «رُمي»، والجُمْلَةُ صفَةٌ لـ «عَسْكَر»، وحاصِلُ البيتِ أنَّهُ شبَّهَ الشَّياطِينَ في هرَبِهم وتَبَدُّدِ شمْلِهم، بأبْطالِ أبْرَهَةَ أو بالعَسْكَرِ المَذْكورِ.

---

(١) أي الغائط.

(٢) سورة الفيل - الآية ١

(٣) أخرجه الطبري وابن كثير في تفسيرهما بسنديهما عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: رفع رسول الله صلى الله عليه وسلم يديه، يعني: يوم بدر، فقال: يا رب إن تهلك هذه العصابة، فلن تعبد في الأرض أبداً، فقال له جبريل: خذ قبضة من التراب، فارم بها في وجوههم، فأخذ قبضة من التراب، فرمى بها في وجوههم، فما من المشركين أحد إلا أصاب عينيه ومنخريه وفمه تراب من تلك القبضة، فولوا مدبرين.

(٤) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب في غزوة حنين، بسنده عن العباس بن عبد المطلب، قال: شهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين ..... قال: ثم أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم حصيات فرمى بهنَّ وجوهَ الكفار، ثم قال انهزموا وربِّ محمد، قال فذهبتُ أنظر فإذا القتال على هيئته فيما أرى، قال: فوالله ما هو إلا أن رماهم بحصياته فما زِلت أرى حدَّهم كليلا وأمرَهم مُدبرا.

٧١- نَبْذاً بِهِ بعْدَ تسبيحٍ ببَطْنِهِمــــا نَبْذَ المُسَبِّحِ منْ أحْشَــاءِ مُلْتَقِمِ

نبْذاً بِهِ أي رمياً بالحَصى، **بعْدَ تسْبيحٍ** منْهُ **ببَطْنِهِمَا** أي في باطِنِ الراحَتينِ، **نبْذَ المُسَبِّحِ من أحْشاءِ** حوتٍ **مُلْتَقِمٍ** لَهُ، وهو يونُسُ عليهِ السَّلامُ، قالَ تعالى: ﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾[1] إلى قولِهِ: ﴿سَقيم﴾[2]، وقالَ تعالى عنْهُ: ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَاتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّالِمِينَ﴾[3].

والقَصْدُ تشْبيهُ نبْذِ النَّبي صلى الله عليه وسلم بالحَصَى المُسَبِّحِ العَسْكَرَ الهارِبَ مُنْكَسِراً، بِنَبْذِ الله تعالى يونُسَ المُسَبِّحَ من بطْنِ الحوتِ حياً، في أنَّ كِلاهما خارِقٌ للعادَةِ، وكأنَّ النَّاظِمَ وقَفَ على تسْبيحِ الحَصَى المَرْمِيِّ، أو قصَدَ التَسَبيحَ الثابِتَ في غيرِ ذلِكَ، وعليهِ فقولُهُ «بعْدَ تسْبيحٍ» أي مِن جِنْسِ الحَصَى في محَلٍّ آخَر.

وقولُهُ: «نبْذاً» مصْدَرٌ منْصوبٌ بـ «رُمي[4]» كـ «جلَسْتُ قُعوداً»، أو بمَحْذوفٍ أي «نبَذَ نبْذاً»، فيكونُ بدلاً من اللَّفْظِ بِفِعْلِهِ، و«الأحْشاءُ» جمْعُ «حشَا» وهو ما انْضَمَّتْ عليهِ الضُّلوعُ، و«مِن» مُتَعلِّقَةٌ بـ «نبْذَ المُسَبِّحِ».

*****

(١) سورة الصافات – الآية ١٤٢
(٢) أي إلى نهاية الآية ١٤٥ من سورة الصافات: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ * فَنَبَذْنَاهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ﴾
(٣) سورة الأنبياء – من الآية ٨٧
(٤) في قوله «من راحتيه رُمي» في البيت قبل السابق (رقم ٧٠).

الفصل الخامس: في معجزاته صلى الله عليه وآله وسلم

٧٢- جاءَتْ لِدَعْوتِهِ الأشْجَـارُ ساجِدَةً   تمْشي إليهِ على سـاقٍ بلا قَدَمِ

جاءَتْ لِدَعْوتِهِ أي ندائِهِ، **الأشْجَارُ ساجِدَةً** أي خاضِعَةً، **تمْشي إليهِ على ساقٍ بلا قَدَمٍ** يُعينُها على المَشي[1].

قالَ الله تعالى: ﴿وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾[2]، والشَجَرُ ما لهُ ساقٌ، والنَّجَمُ ما لا ساقَ لهُ مِن النَّباتِ. و«بِلا قَدَمٍ» مُتَعَلِّقٌ بـ «تمْشي»، أو صِفَةٌ لـ «ساقٍ»، وباؤُهُ للمُصاحَبَة.

٧٣- كأنَّما سَطَرَتْ سَطْراً لِمَـا كتَبَتْ   فُروعُهـا مِنْ بديعِ الخَطِّ باللَّقَمِ

كأنَّما حالٌ من فاعِلِ «تمْشي»، و«ما» كافَّةٌ[3]، **سطَرَتْ** أي خطَّت الأشجارُ **سطْراً لِمَا**، أي لِلذي **كتَبَتْ فُرُوعُها من بديعِ الخَطِّ باللَّقَمِ** -بِفَتْحِ اللامِ والقافِ- أي وسَطِ الطَّريقِ.

---

(١) وقد عقد القاضي عياض في كتابه «الشفا بتعريف حقوق المصطفى صلى الله عليه وسلم» فصلا عنوانه: «في كلام الشجر وشهادتها له بالنبوة وإجابتها دعوته» ضمنه ماجاء في ذلك من أحاديث.

(٢) سورة الرحمن - الآية ٦

(٣) أي تكفُّ «إن وأخواتها» عن العمل وتجعلها مهيأة للدخول على الفعل.



و«مِن» بيانٌ لـ «ما»، وإضافَةُ «بديع» للبيانِ، وهي مِن إضافَةِ الصِّفَةِ إلى الموصوفِ، أي الخَطِّ المُبْتَدَعِ، لكونِهِ لمْ يُعْهَدْ مِثْلُهُ لمِثْلِ الأشجارِ، شبَّهَ آثارَ فُرُوعِها في الأرضِ المُفيدَةِ للخيراتِ بالخَطِّ الدالِّ على اللفظِ المُفيدِ للمَعاني.

رُوي أنَّ أعْرابيا سأَلَ النبي صلى الله علَيهِ وسلَّم آيةً، فقالَ لهُ: قُلْ لِتِلْكَ الشَّجَرةِ رسولُ اللهِ -صلى الله عليه وسلم- يدْعوكِ، فمالَتْ عن يمينِها وشِمالِها وبينَ يَدَيها وخَلْفِها، فَقَطعَتْ عُرُوقَها، ثُمَّ جاءتْ تَجُرُّ عُرُوقَها، حتى وقَفَتْ بينَ يديهِ صلى الله عليه وسلم، فَقالَتْ: السَّلامُ عليكَ يا رسولَ اللهِ، قالَ الأعْرابيُّ: فمُرْها فلْتَرْجِعْ إلى منْبَتِها، فأَمَرَها فرَجَعَتْ، ودَلَّتْ عُرُوقَها في منْبَتِها، فاسْتَوتْ فيهِ[1].

و«سطْراً» مفْعولٌ بهِ لـ «سَطَرَتْ» إنْ كانَ بِمَعْنى المَسْطورِ، وإلا فمَصْدَرٌ مُؤكِّدٌ لهُ، وهو مفْعولٌ مُطْلَق، وعليهِ يُقْرأُ «سطَرَت» مُخَفَّفاً، إذ مصْدَرُهُ مُشَدَّداً «تسْطير» لا «سَطْر»، و«لِمَا» مُتَعَلِّقٌ بـ «سَطَرَتْ».

٧٤- مِثْلَ الغَمَامَةِ أَنَّى سَـــارَ سائِرَةً ... تَقِيهِ حَرَّ وطِيسٍ لِلْهَجِيرِ حَمِـــي

مِثْلَ بالنَّصْبِ حالٌ ثانيةٌ، وبالرَّفْعِ خبَرُ مُبْتَدأ محْذوف، أي مجيءُ الأَشْجارِ لدَعوتِهِ مِثْلُ **الغَمَامَةِ**، **أَنَّى** أي متى أو أينَ **سارَ** أي مِثْلَ الغَمامَةِ، و«أَنَّى سَارَ» ظرْفٌ لقولِهِ **سائرةً** -بالنَّصْبِ- حالٌ من «الغَمامَةِ».

---

(١) رواه البيهقي في دلائل النبوة، ومما ورد أيضا في إجابة الأشجار لدعوته ما رواه الدارميُّ في سننه بسنده عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: جاء جبريل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو جالس حزين، وقد تخضب بالدم من فعل أهل مكة من قريش، فقال جبريل عليه السلام: يا رسول الله، هل تحب أن أريك آية؟، قال: نعم، فنظر إلى شجرة من ورائه، فقال: ادع بها، فدعا بها، فجاءت وقامت بين يديه، فقال: مرها فلترجع، فأمرها فرجعت، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: حسبي حسبي.

تقيه الغَمامَةُ حرَّ وطِيسٍ أي تَنّورٍ[١]، **لِلْهَجيرِ** أي نِصْفِ النَّهارِ الحارِ، **حَمِي** صِفَةٌ لـ «وطِيسٍ»، يقالُ «حَمِيَ الوَطيسُ» إذا اشْتَدَ الحَرُّ، والمَعْنى: تقيهِ حرَّ الشَّمْسِ في الهَجيرِ[٢]. قالَ بعْضُهُم: ولا تخلو ألفاظُ البيتِ مِن تعْقيدٍ، ولَسْتُ على يقينٍ من ثُبوتِ هذا البَيتِ في الرِّوايَةِ[٣].

---

(١) التّنور هو الفرن يخبز فيه، والوطيس: حفيرة يوقد فيها، والمراد هنا الحرارة المُحرقة.

(٢) يشير هذا البيت إلى حادثة تظليل الغمامة لرسول الله صلى الله عليه وسلم، والتي أوردها ابن سعد في الطبقات الكبرى كما يلي: خرج أبو طالب إلى الشام وخرج معه رسول الله صلى الله عليه وسلم في المرة الأولى وهو ابن اثنتي عشرة سنة، فلما نزل الركب بصرى من الشام وبها راهب يقال له بحيرا في صومعة له ...، حتى إذا كان ذلك العام ونزلوا منزلا قريبا من صومعته قد كانوا ينزلونه قبل ذلك كلما مروا، فصنع لهم طعاما ثم دعاهم، وإنما حمله على دعائهم أنه رآهم حين طلعوا وغمامة تظل رسول الله صلى الله عليه وسلم من بين القوم حتى نزلوا تحت الشجرة، ثم نظر إلى تلك الغمامة أظلت تلك الشجرة واخضلت أغصان الشجرة على النبي صلى الله عليه وسلم حين استظل تحتها، فلما رأى بحيرا ذلك نزل من صومعته وأمر بذلك الطعام فأتي به، وأرسل إليهم فقال: إني قد صنعت لكم طعاما يا معشر قريش وأنا أحب أن تحضروه كلكم ولا تخلفوا منكم صغيرا ولا كبيرا حرا ولا عبدا فإن هذا شيء تكرموني به، فقال رجل: إن لك لشأنا يا بحيرا ما كنت تصنع بنا هذا فما شأنك اليوم، قال: فإني أحببت أن أكرمكم ولكم حق، فاجتمعوا إليه وتخلف رسول الله صلى الله عليه وسلم من بين القوم لحداثة سنه، ليس في القوم أصغر منه في رحالهم تحت الشجرة، فلما نظر بحيرا إلى القوم فلم ير الصفة التي يعرف ويجدها عنده، وجعل ينظر ولا يرى الغمامة على أحد من القوم ويراها متخلفة على رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال بحيرا: يا معشر قريش لا يتخلفن منكم أحد عن طعامي، قالوا: ما تخلف أحد إلا غلام هو أحدث القوم سنا في رحالهم، فقال: ادعوه فليحضر طعامي فما أقبح أن تحضروا ويتخلف رجل واحد مع أني أراه من أنفسكم ... فقال الحارث بن عبد المطلب بن عبد مناف: والله إن كان بنا للؤم أن يتخلف ابن عبد المطلب من بيننا، ثم قام إليه فاحتضنه وأقبل به حتى أجلسه على الطعام، والغمامة تسير على رأسه، وجعل بحيرا يلحظه لحظا شديدا، وينظر إلى أشياء في جسده قد كان يجدها عنده من صفته، فلما تفرقوا عن طعامهم قام إليه الراهب فقال: يا غلام أسألك بحق اللات والعزى ألا أخبرتني عما أسألك، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا تسألني باللات والعزى فوالله ما أبغضت شيئا بغضهما، قال: فبالله ألا أخبرتني عما أسألك عنه، قال: سلني عما بدا لك، فجعل يسأله عن أشياء من حاله حتى نومه، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبره فيوافق ذلك ما عنده، ثم جعل ينظر بين عينيه، ثم كشف عن ظهره فرأى خاتم النبوة بين كتفيه على موضع الصفة التي عنده، قال: فقبّل موضع الخاتم، وقالت قريش: إن لمحمد عند هذا الراهب لقدرا، وجعل أبو طالب لما يرى من الراهب يخاف على ابن أخيه، فقال الراهب لأبي طالب: ما هذا الغلام منك، قال أبو طالب: ابني، قال: ما هو بابنك وما ينبغي لهذا الغلام أن يكون أبوه حيا، قال: فابن أخي، قال: فما فعل أبوه؟ قال: هلك وأمه حبلى به، قال: فما فعلت أمه؟ قال: توفيت قريبا، قال: صدقت ارجع بابن أخيك إلى بلده واحذر عليه اليهود، ... فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم، نجده في كتبنا وما روينا عن آبائنا، ... ورجع به أبو طالب فما خرج به سفرا بعد ذلك خوفا عليه.

(٣) تشير المخطوطات الكثيرة المتوافرة للبردة إلى ثبوت هذا البيت في رواية القصيدة.

٧٥- أقْسَمْتُ بِالقَمَــــرِ المُنْشَقِّ إنَّ لَهُ ۞ مِنْ قَلْبِه نِسْبَةً مبْرورَةَ القَسَــــمِ

أقْسَمْتُ أي حلَفْتُ **بِالقَمَرِ المُنْشَقِّ** لِلنَّبي صلى الله عليه وسلم آيةً، وإنْ زَعَمَ الكُفّارُ أنَّهُ سِحْرٌ، قالَ تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ * وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾[1]، وجوابُ القَسَمِ **(إنَّ لهُ)** أي لِلْقَمَرِ المُنْشَقِّ **(مِن قَلْبِه نِسْبَةً)** أي شَبَهاً بِقَلْبِ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم في انْشِقاقِ كُلٍّ منْهما مرتَّين[2]، **(مبْرورةَ القَسَمِ)** صِفةُ «يميناً»[3]، دلَّ عليها «أقْسَمْتُ».

والقَسَمُ بِالقَمَرِ جائِزٌ، قالَ تعالى: ﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ﴾[4]، ويُحْتَمَلُ أنَّهُ أقْسَمَ بِمُضافٍ محْذوفٍ، أي «وربِّ القَمَرِ»[5].

---

(١) سورة القمر - الآيتان ١ و ٢

(٢) تكررت حادثة شق الصدر لرسول الله صلى الله عليه وسلم كما هو ثابت في الروايات، وكانت المرة الأولى وهو صغير عند مرضعته حليمة، لينشأ مبرءا عما عليه الصبيان من اتباع الهوى والشيطان، وشق ثانية عند بلوغه عشر سنين، ليدخل سن المراهقة وهو على أكمل الأحوال، وعند مبعثه ليتلقى الوحي على أتم حالات الكمال، ثم في ليلة المعراج، وقد نظمها العلامة الأجهوري فقال:

وشُقَّ صدرُ المصطفى وهو في ۞ دار بني سعد بغير مُديــــة
كشقه وهو ابن عشـــر، ثم في ۞ ليلة معراج، وعند البعثـــة

(٣) أي صفة لكلمة مقدرة هي كلمة «يمينا» دل عليها قوله «أقسمت».

(٤) سورة الانشقاق - الآية ١٨

(٥) وما ورد من النهي عن الحلف بغير الله، مقيد بما إذا كان الحالف معتقدا في المحلوف به الألوهية، والدليل على ذلك حلف الرسول صلى الله عليه وسلم -لفظا- بغير الله، في الحديث المشهور الذي رواه مسلم في كتاب الإيمان من صحيحه (أفلح وأبيه إن صدق). وفي شرحه على هذا الحديث يقول الإمام النووي: [قوله صلى الله عليه وسلم (أفلح وأبيه إن صدق) ليس هو حلفا، إنما هو كلمة جرت عادة العرب أن تدخلها في كلامها، غير قاصدة بها حقيقة الحلف، والنهي إنما ورد فيمن قصد حقيقة الحلف لما فيه من إعظام المحلوف به ومضاهاته به الله سبحانه وتعالى].
وجاء في عون المعبود شرح سنن أبي داوود: [قال العيني: والحكمة في النهي عن الحلف بالآباء أنه يقتضي تعظيم المحلوف به، وحقيقة العظمة مختصة بالله جلت عظمته فلا يضاهى به غيره ، وهكذا حكم غير الآباء من سائر الأشياء. وما ثبت أنه صلى الله عليه وسلم قال: أفلح وأبيه فهي كلمة تجري على اللسان لا يقصد بها اليمين].
ومثله الحلف بالنبي والمصحف والكعبة وغير ذلك مما يجري على ألسنة الناس دون اعتقاد ألوهية في المحلوف به، فينبغي التنبه إلى أنه حين صدور أي لفظ من أي موحد، ينبغي أن يفهم في ضوء عقيدته، تغليبا لحسن الظن بالمسلم، الذي لا يجوز شرعا إساءة الظن به.

٧٦- وَما حَوَى الغَـارُ مِنْ خَيْرٍ ومِن كرَمٍ   وكُلُّ طَرْفٍ مِن الكُفَّارِ عنْهُ عَمِـي

وما منْصوبٌ بِمُقَدَّرٍ، أي «اذْكُرْ»، أو مجْرورٌ عطْفاً على «القَمَرِ»، وجوابُهُ مُقَدَّرٌ مِّما قبْلَهُ، و«ما» بمَعْنى «مَنْ»، أي واذْكُرْ مَن، أو وأَقْسَمْتُ بمن **حوى** أي جمَعَهُ **الغارُ من خيرٍ ومن كرَمٍ**، يعني النبيَّ صلى الله عليهِ وسلم والصِّديقَ رضيَ الله تعالى عنْهُ، ووصَفَهُما بما هو من شَأْنِهما، وجوَّزَ بعْضُهُم إبقاءَ «ما» على معناها، وحَمْلَ الخيرِ والكَرَمِ على صفاتِ النبيِّ صلى الله عليهِ وسَلَمَ والصِّديقِ رضي الله تعالى عنه، أي وما جمَعَهُ الغارُ من الخيرِ والكَرَمِ الصادرِ من النَّبيِّ صلى الله عليهِ وسَلَّمَ والصِّديقِ[1].

والغارُ ثُقْبٌ في جبَلِ ثَوْرٍ بِأَسْفَلِ مكَةَ، ولَبِثا فيه حينَ أرادا الهِجْرَةَ ثلاثَ ليالٍ مُخْتَفِيَيْنِ من الكُفَّارِ، حتى انْقطَعَ طلَبُهُم لهُما، وقَدْ جاءوا حولَ الغارِ ينْظُرونَ، فأعْماهُمُ اللهُ تعالى، كما ذكَرَهُ الناظِمُ بقولِهِ: **وكُلُّ طرْفٍ** أي بَصَرٍ **من الكُفّارِ عنْهُ**، أي عن المَحوي **عمي**. قالَ أبو بكْرٍ الصِّديقُ رضيَ الله عنْهُ: نظَرْتُ إلى أقْدامِهِم فوق رُؤوسِنا، فقُلْتُ: يا رسولَ اللهِ لو أنَّ أحَدَهُم نظَرَ إلى قدَميهِ أبْصَرَنا، فقالَ: **(ما ظنُّكَ باثْنينِ اللهُ ثالِثُهُما)**[2].

وجُمْلَةُ «وكُلُّ طرفٍ..» إلى آخرِهِ حالٌ مِن «ما»، و«عمي» يحْتَمِلُ الفعْلَ والاسْمَ، وسَكَّنَ الياءَ على الأوَّلِ للوقْفِ، وردَّها على الثاني لهُ أيضاً على لُغَةٍ.

---

(١) جاء في شرح الباجوري: والمراد بالخير الأخلاق الحميدة، وبالكرم الجود، فهما متغايران تغاير الأعم والأخص، وكل منهما لكل من النبي صلى الله عليه وسلم ومن أبي بكر، ويحتمل أن الأول للنبي صلى الله عليه وسلم، والثاني لأبي بكر، وعلى هذا فإنما خصه بالكرم لأنه آثر رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه وماله.

(٢) رواه الشيخان: البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، سورة براءة، باب قوله (ثاني اثنين إذ هما في الغار)، ومسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، باب من فضائل أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

٧٧- فالصِّدْقُ في الغَارِ والصِّدِّيقُ لمْ يَرِما وهُمْ يَقُولونَ ما بِالغَــــارِ مِن أَرِمِ

فالصِّدقُ أي النبيُّ مُبالَغَةً، أو هو على حذْفِ مُضافٍ، أي فـ «ذو الصِّدْقِ» وهو **في الغارِ، والصِّديقُ** أي أبو بكْرٍ رضي الله تعالى عنه، وهو فيه، **لم يرما** -بكَسْرِ الراءِ- أي لم يبْرَحا، يُقالُ: لا أَرِيْمُ مكانَهُ، أي لا أبْرَحُ. وأَصْلُ «يرما» يَرِيْما، بياءٍ بعْدَ الراءِ، حُذِفَتْ تبَعاً لِحَذْفِها في إِسْنادِهِ إلى المُفْرَدِ، لالْتِقاءِ الساكِنينِ، والمَعْروفُ في مِثْلِهِ إِثْباتُ الياءِ، وزانَه قولُهُ في التَّنْزيلِ ﴿فَٱسْتَقِيمَا﴾[1].

(وهُمْ) أي الكُفّارُ، **يقولونَ ما بِالغارِ من أرِمِ** -بِفَتْحِ الهَمْزَةِ وكَسْرِ الراءِ- أي أَحَد، نظَراً إلى حومِ الحَمامِ حولَ الغارِ، ونسْجِ العَنْكَبوتِ على فمِهِ، كما أشارَ إليهِ الناظِمُ بِقولِهِ:

٧٨- ظنُّوا الحَمـامَ وظَنُّوا العَنْكَبوتَ على خَيْرِ البَرِيَّةِ لم تَنْسِجْ ولَمْ تَحُـــــمِ

ظنُّوا أنَّ الحَمامَ، وظَنُّوا أنَّ العَنْكَبوتَ على خيرِ البَرِيةِ أي الخَلْقِ، **لم تنْسِجْ** -بِفَتْحِ التاءِ وكسْرِ السينِ أو ضمِّها- أي لمْ تَنْسِجِ العَنْكَبوتُ على خيرِ البَرِيةِ، **ولَمْ تحُمِ**، أي لَم تدُرِ الحَمامُ حولَهُ، ففي كلامِهِ لفٌّ ونَشْرٌ معْكوسٌ[2].

وسَبَبُ ما ذُكِرَ أنَّ هذينِ الحيوانينِ لا يأْلفانِ عُمْرانا، فمتى أَحَسّا بِإِنْسانٍ فرَّا مِنْهُ، ولم يعْلَمِ الكُفّارُ أنَّ اللهَ تعالى يحْفَظُ مَن يشاءُ مِن عِبادِهِ، بما يشاءُ من خَلْقِهِ، كما أشارَ إليهِ النّاظِمُ بِقولِهِ:

---

(١) سورة يونس – من الآية ٨٩

(٢) حيث بدأ في الشطر الأول بالحمام وثنَّى بالعنكبوت، ثم في الشطر الثاني بدأ بما هو متعلق بالعنكبوت أولا، وثنَّى بما هو متعلق بالحمام. راجع معنى اللف والنشر في هامش البيت رقم ٧.

٧٩- وِقايةُ اللهِ أَغْنَتْ عَنْ مُضـــاعَفَةٍ مِن الدُّروعِ، وعَنْ عـالٍ مِن الأُطُمِ

وِقايةُ اللهِ، أي حِفْظُهُ لهُ بِهَذينِ الضَّعيفينِ جداً من عدُوِّهِ العَظيمِ عدَداً ومَدَداً، **أغْنَتْ** أي كَفَتْ **عن مُضاعَفَةٍ من الدُّروعِ** -بدالٍ مُهْمَلَةٍ- أي عن الدُّروعِ المُضاعَفَةِ، وهي المَنْسوجَةِ حلقَتَينِ حلقَتَينِ، تُلْبَسُ لِلحفظِ من هذا العَدوِّ، **وعَنْ عالٍ** أي مُرْتَفِعٍ **مِن الأُطُمِ** -بِضَمِّ الهَمْزَةِ والطاءِ- أي الحُصونُ، يُتَحَصَّنُ فيها من هذا العَدُوِ الذي أَخْرَجَ النبيَّ صلىَ الله عليهِ وسَلَّمَ. قالَ تعالى: ﴿فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾[١]، و«مِن» في الموضِعين لِلْبيانِ.

ثُمَّ اسْتَأْنَفَ النَّاظِمُ ما اتَّصَلَ بِهِ من قِبَلِ النَّبيِّ، فقالَ:

٨٠- ما سَامَني الدَّهْرُ ضَيْماً واسْتَجَرْتُ بِهِ[٢] إلَّا ونِلْتُ جِواراً مِنهُ لمْ يُضَـــــم

ما سامَني الدَّهْرُ، هذا على عادَةِ العَرَبِ، أو هو على حذْفِ مُضافٍ، أي «أهْلُ الدَّهْرِ»، أي ما ظلَمَني أَحَدٌ مِنْهُم **ضَيماً**[٣]، **واسْتَجَرْتُ بِهِ**[٤] صلى الله

(١) سورة التوبة – من الآية ٤٠

(٢) وفي رواية أخرى للبيت: «ما ضامني الدهر يوما واستجرت به»

(٣) الضَّيْم هو الظلم والإذلال. يقال «ضام فلانا» أي ظلمه.

(٤) لقول الله عز وجل: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [سورة النساء – من الآية ٦٤]، وفي تفسيره لهذه الآية يقول ابن كثير: وقد ذكر جماعة منهم الشيخ أبو نصر بن الصباغ في كتابه «الشامل» الحكاية المشهورة عن العتبي، قال: كنت جالسا عند قبر النبي صلى الله عليه وسلم فجاء أعرابي فقال: السلام عليك يا رسول الله، سمعت الله يقول: {وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا} وقد جئتك مستغفرا لذنبي، مستشفعا بك إلى ربي. ثم أنشأ يقول:

يا خَيْرَ مَنْ دُفِنَتْ بالقاعِ أَعْظُمُهُ فطابَ مِنْ طِيبِهِنَّ القاعُ والأَكَمُ

نَفْسي الفِداءُ لِقَبْرٍ أَنْتَ سَــــاكِنُهُ فيه العَفـافُ وفيهِ الجُودُ والكَرَمُ

ثم انصرف الأعرابي، فغلبتني عيني، فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم في النوم، فقال: يا عتبي الحق الأعرابي، فبشره أن الله قد غفر له.

عليهِ وسَلَّمَ، **إلَّا ونِلْتُ** أي أَصَبْتُ **جواراً** -بِكَسْرِ الجيمِ وضَمِّها- أي قُرْباً **منْهُ**، **لمْ يُضَم** أي لمْ يُحَقَّرْ، بلْ يُحْتَرَم.

ثُمَّ عطَفَ على جُمْلَةِ «ما سامَني» قولَهُ:

٨١- وَلا الْتَمَسْتُ غِنى الدَّارَيْنِ مِنْ يَدِهِ ... إِلَّا اسْتَلَمْتُ النَّدَى مِن خَيْرِ مُسْتَلَمِ

ولا الْتَمَسْتُ، أي طلَبْتُ **غِنى الدارينِ** الدُّنيا والآَخِرَةِ، بالكِفايةِ في الأولى والسَّلامَةِ في الأُخْرى، **من يدِهِ** أي نِعْمَتِهِ وتَفَضُّلِه، **إلا اسْتَلَمْتُ النَّدى** -بِفَتْحِ النونِ والقَصْرِ- أي أَخَذْتُ العَطاءَ، **من خيرِ مُسْتَلَم** -بِفَتْحِ اللامِ- أي مطْلوبٍ منْهُ، لأَنَّهُ صلَّى الله عليهِ وسَلَّمَ لا يرُدُّ سائِلَهُ، كما ثَبَتَ في الصحيحينِ[1]، وبيدِهِ خيرُ الدُّنيا والآَخِرَةِ[2].

ثُمَّ رجَعَ إلى بيانِ صِفاتٍ أُخَر لِلنَّبي، فقال:

---

(١) روى البخاري في صحيحه، كتاب البيوع وكتاب اللباس، بسنده عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: جاءت امرأة ببردة، قال: أتدرون ما البردة؟ فقيل له : نعم، هي الشملة منسوج في حاشيتها، قالت: يا رسول الله، إني نسجت هذه بيدي أكسوكها، فأخذها النبي صلى الله عليه وسلم محتاجا إليها، فخرج إلينا وإنها إزاره، فقال رجل من القوم: يا رسول الله، اكسنيها؟ فقال: نعم، فجلس النبي صلى الله عليه وسلم في المجلس، ثم رجع فطواها، ثم أرسل بها إليه، فقال له القوم: ما أحسنت سألتها إياه، لقد علمت أنه لا يرد سائلا، فقال الرجل: والله ما سألته إلا لتكون كفني يوم أموت، قال سهل: فكانت كفنه.
وروى مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، بسنده عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: ما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم، على الإسلام شيئا، إلا أعطاه، قال، فجاءه رجل، فأعطاه غنما بين جبلين، فرجع إلى قومه، فقال: يا قوم أسلموا، فإن محمدا يعطي عطاءً لا يخشى الفاقة.

(٢) فهو القاسم عن الله عطاءَه كما في حديث الصحيحين: (إنما أنا قاسم والله يعطي)، وقد أعطاه الله مفاتيح خزائن السماوات والأرض كما في حديث البخاري: (إني فرطكم وأنا شهيد عليكم إني والله لأنظر إلى حوضي الآن، وإني قد أعطيت خزائن مفاتيح الأرض، وإني والله ما أخاف بعدي أن تشركوا ولكن أخاف أن تنافسوا فيها).

٨٢- لا تُنْكِرِ الوَحْيَ مِن رُؤيـــاهُ إنَّ لَهُ   قَلْباً إذا نامَتِ العَينـــانِ لَمْ يَنَمِ

لا تُنْكِرِ الوحي -وفي نُسْخَةٍ لا تُنْكِروا الوحي- **مِن رُؤياهُ** له في النَّوم[١]، **إنَّ لهُ قلْباً إذا نامَتِ العينانِ** مِنْهُ، **لمْ ينَم** أي قلْبُهُ[٢]، وهو مهْبِطُ الوحيِّ في النَّومِ واليقَظَةِ.

و«مِن رُؤياهُ» مُتَعَلِّقٌ بـ «تُنْكِر»، أو حالٌ مِن «الوحي»، و«مِن» للتَّبْعيضِ، أو لِلابْتِداءِ، وقيلَ بِمَعْنى «في».

٨٣- وذاكَ حينَ بُلُوغٍ من نُبُوَّتِـــــــهِ   فليسَ يُنْكَرُ فيه حَـــــالُ مُحْتَلِمِ

وذاكَ، أي رُؤياهُ الوحْيَ في النَّوم، **حينَ** أي زمَنَ **بُلوغٍ** كائنٍ **من نُبُوَّتِه**، أي وصولِهِ إليها، وقَدْ نُبِّيَ على رأسِ أربعينَ سنَةً من عُمْرِهِ، وهي حدُّ مبْدَأِ النُّبوةِ، **فليسَ** الشَّأنُ **يُنْكَرُ** -بالبناءِ للمَفْعولِ- **فيهِ**، أي في الزَّمَنِ المَذْكورِ **حالُ مُحْتَلِمٍ**، مِن رُؤيا الوَحي في النَّوم[٣].

و«مِن نُبُوَّتِهِ» صِفَةٌ لـ «بُلوغٍ» كما أشَرْتُ إليهِ، وقيلَ مُتَعَلِّقٌ بـ «بُلوغٍ»، والمُحْتَلِمُ البالِغُ.

---

(١) روى البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي، بسنده عن أم المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها، أنها قالت: (أول ما بدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح...).

(٢) روى البخاري في صحيحه، كتاب التهجد، باب قيام النبي صلى الله عليه وسلم في رمضان وغيره، بسنده عن أم المؤمنين عائشة أنه صلى الله عليه وسلم قال لها: (يا عائشة إن عيني تنامان، ولا ينام قلبي).

(٣) والمعنى أن الوحي له صلى الله عليه وسلم أثناء نومه، كان في ابتداء النبوة، وكان حينها قد بلغ الأربعين، وحكمة ذلك الاستئناس بملاقاة الملك في النوم ليطيق ذلك في اليقظة بعد، فلما استأنس بذلك أتاه في اليقظة.

٨٤- تَبَـــــارَكَ اللهُ ما وَحْيٌ بِمُكْتَسَبٍ ولا نَبِيٌّ على غَيْبٍ بِمُتَّهَـــــم

تباركَ اللهُ تعالى، ما وحيٌ بِمُكْتَسَبٍ لِأَحَدٍ بِعَمَلٍ، بلْ بِفَضْلٍ مِن اللهِ تعالى، ذلكَ فضْلُ اللهِ يُؤتيهِ مَن يشاءُ[١]، **ولا نبيٌّ على غيبٍ** أي غائبٍ عنْهُ بقولِهِ **بِمُتَّهَمٍ**، لِعِصْمَتِهِ إجْماعاً، وقالَ تعالى: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾[٢] أي بِمُتَّهَمٍ، والباءُ في الموضِعين زائدَةٌ لِتَأْكيدِ النَّفي.

٨٥- كَمْ أَبْرَأَتْ وَصِباً بِاللَّمْسِ راحَتُـــــهُ وأَطْلَقَتْ أَرِباً من رِبْقَةِ اللَّمَـــــم

كَمْ خبَرِيةٌ بِمَعْنى كثيراً، **أبرأَتْ** أي شفَتْ، **وَصِباً** -بِكَسْرِ الصادِ- أي مريضاً، **باللَّمْسِ** أي بسببِهِ، **راحَتُهُ** أي بطْنُ كفِّهِ المُباركَةِ[٣]، **وأطْلَقَتْ** أي راحَتُهُ، **أَرِباً**

---

(١) قال الإمام اللقاني في جوهرة التوحيد:

ولم تكن نبوة مكتسبـــــة ولو رقى في الخير أعلى عقبه
بل ذاك فضل الله يؤتيه لمن يشـــــاء جل الله واهب المنن

(٢) سورة التكوير - الآية ٢٤

(٣) يشير بذلك الإمام البوصيري إلى ما ورد من إبراء رسول الله صلى الله عليه وسلم للمرضى، من ذلك ما رواه نور الدين الحلبي في سيرته المشهورة باسم «السيرة الحلبية»: وجاء عن قتادةَ رضي الله عنه قال: كنتُ يومَ أُحُد أتَّقي السِّهامَ بوجهي عن وجهِ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم، فجاءني سهمٌ خرجتْ منه حَدقتي، فلمَّا رآها رسول الله صلى الله عليه وسلم في كفي دَمعتْ عيناه، وقال: «اللهم قِ قتادةَ كما وقَىَ وجهَ نبيك»، ثم ردَّها صلى الله عليه وسلم براحته الشريفة، فكانت أحسنَ عينيه وأشدَّهما بصرا. وروي أن قتادة قال: يا رسول الله، إن لي امرأةً أحبُّها، وأخشى أن تراني تقذُرُني، فبكى رسول الله صلى الله عليه وسلم حين رفعتُ حدقتي في كفي، وقال لي: إن شئتَ صبرتَ ولك الجنة، وإن شئت رددتها ودعوتُ الله تعالى لك، فقلتُ: يا رسول الله، إن الجنة لجزاء جميل وعطاء جليل، وإني مغرمٌ بحب النساء وأخافُ أن يقُلن أعور فلا يُردنني، ولكن تردَّها وتسألَ الله تعالى لي الجنة، فأخذها رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده، وردها إلى موضعها، وقال: «اللهم اكسه جمالا وقه كما وقى وجه نبيك بوجهه» فكانت أحسن عينيه، وكانت لا ترمدُ إذا رمدت الأخرى.

وحكي عن ابن عبد البر أن رجلا من وَلد قتادة، قدم على عمر بن عبد العزيز رضي الله تعالى عنه، فقال له: ممن الرجل؟، فقال:

أنا ابن الذي سالت على الخد عينه فرُدت بكف المصطفى أحسن الرد
فعادت كما كانت لأول أمرهـــــا فيا حسن ما عين ويا حسن ما رد

-بِكَسْرِ الراءِ- أي مُحْتاجاً إلى الخَلاصِ **من رِبْقَةِ اللَّمَم** -بِكَسْرِ الراءِ وسُكونِ المُوحَّدَةِ وفَتْحِ اللامِ والميمِ- أي عُروةُ الجُنونِ.

رُوِيَ[1] أنَّ امْرأةً أتَتِ النبيَّ صلى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ بابْنٍ لها بِه جنونٌ، فمَسَحَ بيدِه المُباركَةِ صَدْرَهُ، فثَعَّ ثعةً -بالمُثَلَّثَةِ والمُهْمَلَةِ- أي قاءَ، فخَرَجَ من فيه[2] مثْلُ الجَرْوِ الأسودِ. و«من رِبْقَةِ» مُتَعَلِّقٌ بِـ «أَطْلَقَتْ» أو بِمَحْذُوفٍ كما تَقَرَّرَ، و«مِن» للابْتِداءِ.

٨٦- وَأَحْيَتِ السَّنَةَ الشَّهْبـــــاءَ دعوتُهُ حَتَّى حَكَتْ غُرَّةً في الأَعْصُرِ الدُّهُـمِ

وأحيت السَّنَةَ الشهباءَ، يعْني القَليلَةَ المَطَرِ لِغَلَبَةِ بياضِ الأَرْضِ فيها بعَدَمِ النَّباتِ على سوادِها بالنَّباتِ، فهي بالنسْبَةِ إلى البياضِ ميتَةٌ أحيَتْها **دعوتُهُ** المُباركَةُ بالسُّقيا[3]، **حتى حكَتْ** أي شابَهَتْ تلْكَ السَّنَةُ **غُرَّةً** أي بياضاً، **في الأَعْصُرِ** جمْعُ عصْرٍ وهو الزَّمَنُ، أي في الأَزْمِنَةِ **الدُّهُم** -بضَمِّ الدالِ والهاءِ- جمْعُ «أَدْهَمٍ» وهو الأَسودُ، والمَعْنى في الأَزْمِنَةِ السّودِ لِشِدَّةِ خُضْرةِ الزَّرْعِ فيها،

(١) رواه أحمد في مسنده، والدارمي في سننه، بسنديهما عن ابن عباس رضي الله عنه.

(٢) أي من فمه، وهو اسم من الأسماء الخمسة.

(٣) روى البخاري في صحيحه، كتاب الجمعة، أبواب الاستسقاء، بسنده عن أنس بن مالك: (أن رجلا دخل المسجد ورسول الله صلى الله عليه وسلم قائم يخطب، فاستقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم قائمًا وقال: يا رسول الله، هلكت الأموال، وانقطعت السبل، فادع الله أن يغيثنا، فرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم يديه، وقال: اللهم أغثنا اللهم أغثنا اللهم أغثنا، قال أنس: ولا والله، ما نرى في السماء سحابة، ولا قزعة، وما بيننا وبين سلع من بيت، ولا دار، قال: فطلعت سحابة مثل الترس، فلما توسطت السماء انتشرت، ثم أمطرت، قال أنس: فلا والله ما رأينا الشمس ستًا، قال: ثم دخل رجل من ذلك الباب في الجمعة المقبلة، ورسول الله صلى الله عليه وسلم قائم يخطب، فاستقبله قائمًا، فقال: يا رسول الله! هلكت الأموال، وانقطعت السبل، فادع الله أن يمسكها عنا، قال: فرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم يديه، فقال: اللهم حولنا، ولا علينا، اللهم على الآكام، والظراب، وبطون الأودية، ومنابت الشجر، قال: فأقلعت، وخرجنا نمشي في الشمس).

حتى يُرى أنَّهُ أسودٌ من إخْصابِها، وتِلْكَ السَّنَةُ أخْصَبُ مِنْها، حتى كأنَّهُ غُرَّةٌ فيها.

وغُرَّةُ كُلِّ شيءٍ أحْسَنُهُ، والشَّهْباءُ مِن قولِهِم «غُرَّةٌ شهْباءُ» أي فيها شعْرٌ يُخالِفُ بياضَها. و«حتى» غايةٌ، مُتَعَلِقٌ بـ «أحيت»، و«في الأعْصُرِ» مُتَعَلِّقٌ بِهِ، أو صِفَةٌ لـ «غُرَّة».

٨٧- بِعارِضٍ جادَ أو خِلْتُ البِطاحَ بِهـــا سَيْبٌ مِن اليَمِّ أو سَيْلٌ مِن العَــرِمِ

بِعارِضٍ، مُتَعَلَّقٌ بـ «حكَتْ» أو بـ «أحيتِ»، أي سحاب[1] **جادَ** بِالمَطَرِ الكَثيرِ، **أو خِلْتُ** أي إلى أن ظنَنْتُ **البِطاحَ**، جمْعُ «بطْحاءَ» أو «أبْطَحْ»، وهو الوادي المُتَّسِعُ المُشْتَمِلُ على حصْباء، **بِها سَيبٌ**[2] -بفَتْحِ السينِ- أي جريٌ **مِن اليمِّ**، أي البَحْرِ، **أو** بِها **سيلٌ مِن العَرِمِ**، أخْذاً من قولِهِ تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ﴾[3] وهو وادٍ.

وجُمْلَةُ «بِها سيبٌ» في موضِعِ المَفْعولِ الثاني لـ «خِلْتُ»، و«أو» عقِبَها لِلتَّخييرِ، وقبْلَها بِمَعْنى الواو وبِمَعْنى «إلى» كما أشَرْتُ إليهِ، وشاهِدُهُ قولُ الشاعِرُ:

لأسْتَسْهِلَنَّ الصَّعْبَ أو أُدْرِكَ المُنى *** فما انقادَتِ الآمالُ إلا لِصابِرِ

و«مِن» في الموضِعين لِلابْتِداءِ.

(١) ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضاً مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ [سورة الأحقاف - من الآية ٢٤].

(٢) مصدر «ساب» بمعنى «ذهبَ حيثُ شاء»، ويأتي أيضا بمعنى العطاءِ والمعروفِ ونحوه.

(٣) سورة سبأ - من الآية ١٦

ولمَّا كانَ قولُهُ «أحيتِ السَّنَةَ الشَّهْباءَ دعوتُهُ» مُسْتَلْزِماً كونَ تِلْكَ الآياتِ ظاهِرةً لِكُلِّ أَحَدٍ، لأنَّ عُمومَ القَحْطِ والخَصْبِ، لا يَخْتَصُّ بِأَحَدٍ، قدَّرَ الناظِمُ أنَّ المُنكِرَ لها قالَ له: كُفَّ عنّا من الأخْبارِ التي لا نُسلِّمُها، فأجابَهُ تقديراً بِأنَّهُ كيفَ يليقُ بِكَ إنْكارُها وقَدْ ظَهَرَتْ ظُهوراً بيِّناً وصريحاً، بِقولِهِ:

*****

الفصل السادس: في شرف القرآن

٨٨- دَعْني ووصْفِيَ آيـــاتٍ لهُ ظهَرَتْ ظُهُورَ نـــارِ القِرى لَيْلاً عَلى عَلَم

دَعْني أي اتْرُكْني أيُّها المُنْكِرُ، **ووصْفي** أي ذِكْري **آياتٍ** -مفْعولُ «وصْف»- **لهُ، ظهَرَتْ ظُهورَ نارِ القِرى** -بكَسْرِ القافِ- أي الضِّيافَة، **ليلاً على علَم** أي جبَلٍ مُرْتَفعٍ، لِجَلْبِ الضيفانِ على عادَةِ العَرَبِ في ذلِكَ، الذي هو غايةٌ في الظُّهورِ.

و«وصْفي» معْطوفٌ على ياءِ «دعْني» أو مفْعولٌ معَهُ، و«لهُ» صِفَةٌ لـ «آياتٍ»، أو مُتَعلِقٌ بـ «ظهَرَتْ»، و«ليلا»، و«على علَم» مُتَعلِّقانِ بـ «ظُهورِ».

٨٩- فالدُّرُّ يزْدادُ حُسْناً وهو مُنْتَظِـــمٌ ولَيْسَ ينْقُصُ قَدْراً غَيْرَ مُنتَظِـــم

فالدُّرُّ أي اللُّؤْلؤُ المَعْلومُ حُسْنُهُ، **يزدادُ حُسْناً وهو مُنْتَظِمٌ** في سِلْكٍ، **وليسَ** أي الدُّرُّ، **ينْقُصُ قدْراً غيرَ مُنتَظِم.**

كذلِكَ آياتُ النَّبي صلى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ التي ظهَرَتْ غايةً في الظُّهورِ، لا يزدادُ ظُهورُها بِذِكْرِها، ويزدادُ حُسْنُها بِنَظْمِها الذي هو كنَظْمِ الدُّرِ، كهذا النَّظْمِ، بِخِلافِ نظْمِها على غيرِ نظْمِ الدُّرِّ، كنَظْمِ كثيرٍ مِن المُدّاحِ، فإنَّه لا يزيدُها حُسْناً لكن لا يُنْقِصُ قدْرَها، الذي هو أعْلى مِن قدْرِ الدُّرِّ.

وقولُه «حُسْناً» مفْعولُ «يزدادُ»، أو تمْييزٌ مُحوَّلٌ عن فاعِلِه، وجُمْلَةُ «وهو مُنْتَظِمٌ» حالٌ من فاعِلِه أيضاً، و«قدْراً» مفْعولُ «ينْقُصُ»، أو تمييزٌ مُحولٌ عن فاعِلِه، و«غيرَ مُنْتَظِمٍ» حالٌ من فاعِلِه أيضاً.

٩٠- فَما تطاوُلُ آمَـــالي المَديحَ(١) إلى ما فيهِ من كَرَمِ الأخْلاقِ والشِّيَـمِ

فما تطاوُلُ آمالي المديحَ -منْصوبٌ بنزْعِ الخافِضِ(٢)- **إلى ما فيه** صلى الله عليهِ وسَلَّمَ **من كرَمِ الأخْلاقِ** أي كثْرَةِ الصِّفاتِ، التي كُلٌّ منْها خُلُقٌ أي طبيعَةٌ لهُ، **والشِّيَم** جمْعُ «شيمَة» وهي الخُلُقُ، وعَطْفُ المُرادِفِ سائغٌ لاخْتِلافِ اللفْظِ، كما في قولِه تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾(٣).

و«ما» الأولى للاسْتفْهامِ الإنكاري، وهو مُبْتَدأٌ خبَرُهُ «تطاوُلُ» بضَمِّ الواوِ، والتَّطاولُ أنْ تمُدَّ عُنُقَكَ قائماً لِتَنْظُرَ إلى بعيدٍ، والمَعْنى: إنَّ تطاوُلَ آمالي بالمَديحِ إلى صِفاتِهِ، لا يصِلُ إليها جميعِها.

و«إلى» مُتَعَلِّقٌ بـ «تَطاول»، و«ما» موصولَةٌ صِلَتُها «فيه»، و«من كرَمِ» مُتَعَلِّقٌ بالصِّلَةِ، و«مِن» للبيانِ أو التبعيضِ.

٩١- آيَـــاتُ حَقٍّ من الرَّحْمَنِ مُحْدَثَةٌ قديمَةٌ، صِفَةُ المَوصُـــوفِ بِالقِدَمِ

آياتُ حقٍّ، بالرَّفْعِ مُبْتَدأً خبَرُهُ مُقَدَّرٌ قبْلَهُ أي «مِن مُعْجزاتِ نبيِّنا»، وبالنَّصْبِ

(١) وفي رواية أخرى للبيت: «فما تطاول آمال المديح».
(٢) أي منصوب بحذف حرف الجر، والتقدير «فما تطاول آمالي بالمديح» فحذفت الباء.
(٣) سورة البقرة - من الآية ١٥٧

بَدَلٌ من «آياتٍ لهُ»[1]، وما بعْدَ المُبْتَدأ أو البَدَلِ إلى قولِهِ «وكالميزانِ مَعْدَلَةً»[2] صفاتٌ لهُ، بجَعْلِ «صفةُ الموصوفِ بالقِدَمِ» نكرةً وما بين الصِّفاتِ من مُتَعلِّقاتِها، **من الرَّحْمنِ** أي كائنَةٌ منْهُ، **مُحْدَثَةٌ لفْظاً قديمَةٌ معْنى**، قال تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِمْ مُّحْدَثٍ إِلاَّ ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾[3]، وفي نُسْخَةٍ بدَلُ «مُحْدَثَة» «مُحْكَمَة»، قالَ الله تعالى: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ﴾[4]، **صِفَةُ الموصوفِ بالقِدَمِ**، وهو الله تعالى.

٩٢- لمْ تَقْتَرِنْ بزَمَـــــانٍ وَهْيَ تُخْبِرُنا عَنِ المَعادِ، وعنْ عـــادٍ، وعنْ إرَمِ

لم تقْتَرِنْ بزَمانٍ من حيثُ معْناها[5]، والباءُ للمُلاصَقَةِ أو للمُصاحَبَةِ، **وهي تُخْبِرُنا**، حالٌ من فاعِلِ «تقْتَرِن»، **عن المعادِ** أي عودِ الخَلْقِ بعْدَ إعْدامِه، قالَ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبْدَؤُا ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾[6]، **وعن عادٍ**[7] وهُم قومُ هودٍ، قالَ اللهُ تعالى حكايةً عنْهُم: ﴿ياهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾[8] إلى آخرِه، **وعن إرم** وهي عادٌ أُخْرى[9]، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾[10] إلى آخرِه. و«عن» في المواضِعِ الثَلاثَةِ للمُجاوزَةِ.

---

(١) في البيت رقم ٨٨ فيما سبق.
(٢) في البيت رقم ١٠٢ فيما يلي.
(٣) سورة الأنبياء – الآية ٢
(٤) سورة هود – من الآية ١
(٥) لأنها قديمة معنى كما مر في البيت السابق، والزمان حادث، ولا يقترن القديم بالحادث، لأنه لو اقترن به لكان حادثا.
(٦) سورة الروم – من الآية ٢٧
(٧) قبيلة سميت باسم أبيها عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح.
(٨) سورة هود – من الآية ٥٣
(٩) قيل أنها نسبت إلى اسم جدهم إرم بن سام بن نوح، وقيل إن «إرم» اسم أرضهم وبلدتهم.
(١٠) سورة الفجر – الآية ٦

٩٣- دامَتْ لَدَيْنـــا ففاقَتْ كُلَّ مُعْجِزَةٍ   من النَّبِيِّينَ إذْ جَــاءتْ ولَمْ تَدُمِ

دامتْ أي الآياتُ، وهي ألفاظُ القُرآنِ التي وقَعَ بها الإعْجازُ، **لدينا** أي عِنْدَنا، **ففاقَتْ** أي علَتْ شرَفاً **كُلَّ مُعْجزةٍ** كائنَةٍ **من النَّبيينَ**، **إذْ جاءَتْ ولَمْ تدُمِ** أي تسْتَمِر، فإنَّ مُعْجزَةَ كُلِّ نبيٍّ غيرِ نبينا تنقضي بموتِهِ، بِخلافِ مُعْجزَةِ نبينا صلى الله عليه وسلَّم[1].

٩٤- مُحَكَّماتٌ فَمَـــا يُبْقينَ من شُبَهٍ   لِذي شِقاقٍ وما يَبْغينَ من حَكَـمِ

محَكَّماتٌ -بفَتْحِ الحاءِ والكافِ المُشَدَّدَةِ- أي الآياتُ التي حكَّمَها اللهُ تعالى، أي أتى بها ذواتِ حِكَمٍ ودالَّةٍ على الحِكْمَةِ أي الحقِّ، قالَ تعالى: ﴿يسٓ * وَٱلْقُرْآنِ ٱلْحَكِيمِ﴾[2]، أي ذي الحِكْمَةِ، أو لأنَّهُ دليلٌ ناطِقٌ بالحِكْمَةِ كالحيِّ.

فما -الفاءُ سببيةٌ- **يُبْقينَ من شُبَهٍ** جمْعُ «شُبْهَةٍ»، **لذي شِقاقٍ** مُتَعَلِّقٌ بـ «يُبْقينَ» أو بـ «شُبَهٍ»، أي لصاحِبِ مُخالفَةٍ للحَقِّ، **وما يبغينَ** أي يطْلُبْنَ **من حَكَمٍ** -بِفَتْحتينِ- أي حاكِمٍ يحْكُمُ على مُخالِفِ الحقِّ، لِظُهورِ براهينِها عليهِ[3].

و «ما» في الموضِعين نافيةٌ، و «مِن» كذلِكَ زائدَةٌ.

(١) قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَافِظُونَ﴾ [سورة الحجر - الآية ٩]، وروى البخاري في كتاب فضائل القرآن من صحيحه، بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (ما من الأنبياء نبي إلا أعطي ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيت وحياً أوحاه الله إليّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة).

(٢) سورة يس - الآيتان ١ و ٢

(٣) يقول ابن العماد الأقفهسي في شرحه: أي الآيات لا تطلب حكما يحكما بينها وبين يعارضها بالشبهة، لأنها في نفسها حاكمة واضحة البراهين.

٩٥- ما حُورِبَتْ قطُّ إلَّا عَــادَ من حَرَبٍ أَعْدَى الأَعَــادِي إليها مُلْقِيَ السَّلَمِ

ما حُورِبَتْ أي عُورِضَتْ **قطُّ** بِأَن ادُّعِيَ الإتيانُ بِمِثْلِها، **إلا عادَ** أي رجَعَ **من حَرَبٍ** -بِفَتْحِ المُهْمَلَتَينِ- أي شِدَّةٍ، وحَقيقَتُه سلْبُ المالِ ويلزَمُ المَسْلُوبَ مِنْهُ الشِدَّةُ، **أعْدى الأعادي** أي أشَدُّهُم عداوةً مِن مُحارَبَتِها **إليها مُلْقِيَ السَّلَم** -بِفَتْحَتينِ- أي الاسْتِسْلامِ والانْقيادِ، أي رجَعَ مُستَسْلِماً مُنْقاداً لِعَجْزِهِ عن مُعارضَتِها، وعَدَمِ إيمانِهِ بِالجائي[1] بها عِناداً.

و«الأعادي» جمْعُ «عدُوّ»، قال تَعالى: ﴿وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ﴾[2]، و«من» لِلابْتِداءِ، و«أعْدى» فاعِلُ «عادَ»، و«إليها» مُتَعَلِّقٌ بِهِ، و«مُلْقي» خبَرُهُ، لأنَّهُ من أخواتِ كانَ.

٩٦- ردَّتْ بلاغَتُها دَعْوَى مُعارِضِهـــــا رِدَّ الغَيورِ يَدَ الجَـــاني عَنِ الحُرَمِ

ردَّتْ بلاغَتُها أي صَرفَتْ فصاحَتُها، **دعوى مُعارِضِها** عن الإتْيانِ بمِثْلِها[3]، **ردَّ الغيورِ** أي كرَدِّ كثيرِ الغَيْرةِ، **يدَ الجاني عنِ الحُرَم** -بِضَمِّ الحاءِ وفَتْحِ الراءِ- جمْعُ «حُرْمَةٍ»، أي عن حُرَمِ الغيورِ كامْرأتِهِ وأختِهِ، وذَلِكَ أشَدُّ الرَدِّ.

---

(١) فاعل «جاء».

(٢) سورة النساء – من الآية ٩٠

(٣) يقول الباجوري: كما وقع لمسيلمة الكذاب، حيث عارض القرآن لما ادعى النبوة، وأراد أن يأتي بقرآن يشبه القرآن، فقال في معارضة سورة النازعات: «والطاحنات طحنا، والعاجنات عجنا، والخابزات خبزا»، فافتضح لا بارك الله فيه.

٩٧- لَهـــا مَعانٍ كمَوْجِ البَحْرِ في مدَدٍ وفوقَ جَوْهَرِهِ في الحُسْنِ والقِيَـم

لها أي لِتلْكَ الآياتِ **معانٍ كموجِ البَحْرِ في مدَدٍ**[1] أي زيادَةٍ، وذَلِكَ لا غايةَ لَهُ، **وفوقَ جوهَرِهِ في الحُسْنِ والقيم** للانْتِفاعِ بِها أَكْمَلَ الانْتِفاعِ. و«فوقَ» مَعْطوفٌ على «كموجٍ»، ونَصْبُهُ لازِمٌ على الظَّرفيةِ، وإنْ كانَتْ مجازيةً هُنا، كما في قولِهِ تعالى: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾[2].

وإذا كانَتْ معاني الآياتِ كموجِ البَحْرِ في مدَدٍ:

٩٨- فلا تُعَدُّ ولا تُحْصَى عجائِبُهــا ولا تُسامُ عَلى الإكْثـــارِ بالسَّأَم

فلا تُعَدُّ ولا تُحْصى أي تُحْفَظُ **عجائِبُها** جمْعُ «عجيبَة»، وهي الشيءُ العديمُ النظيرِ، والإضافَةُ للبيانِ، أي العجائِبُ التي هي معاني الآياتِ، **ولا تُسامُ** أي تُوصَفُ **على الإكْثارِ** لها الذي لا غايةَ لهُ، **بالسَّأَم** لها -بفَتْحِ الهَمْزَةِ- أي بالمَلالَةِ، لِحُسْنِ تِلْكَ المَعاني، والباءُ للإلْصاقِ.

٩٩- قَرَّتْ بها عَيْنُ قارِيهــا، فقُلْتُ لهُ لقَدْ ظَفِرْتَ بِحَبْلِ الله فاعْتَصِــم

قَرَّتْ بها عيْنُ قاريها -بإبْدالِ همْزَتِه ياءً ساكنَةً للوزنِ- أي سُرَّتْ بها واطْمَأَنَّتْ ممَّا يسُوؤُها، يُقالُ «قرَّتْ عينُهُ» أي سرتْ بِدَمْعَةِ الفَرَحِ ولَمْ تسخَنْ

(١) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَاداً لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً﴾ [سورة الكهف - الآية ١٠٩].

(٢) سورة يوسف - من الآية ٧٦

بِدَمْعَةِ الحُزْنِ، **فَقُلْتُ لَهُ**، أي لِقارِئِها: واللهِ **لَقَدْ ظَفِرْتَ**، أي فُزْتَ **بِحَبْلِ اللهِ**، أي بِمَا يُوصِلُكَ إلى دارِ كرامَتِهِ، **فاعْتَصِم** أي استَمْسِكْ بِهِ، بِأَنْ تَعْمَلَ بِمُقْتَضاهُ.

١٠٠- إِنْ تَتْلُها خِيفَةً مِن حَرِّ نــارِ لَظىً ... أَطْفَأْتَ حرَّ لَظىً مِن وِرْدِها الشَّبِمِ

إن تَتْلُها أي الآياتِ **خيفَةً** أي خوفاً، أو خائفاً **من حرِّ نارِ لَظى** أي جهَنَّم، **أطْفَأْتَ** عنْكَ بالآياتِ **حرَّ لظىً** بحيثُ لا تصِلُ إليكَ، **من** أجْلِ **وِرْدِها** أي موردِ الآياتِ **الشَّبِم** -بِفَتْحِ المُعْجَمةِ وكَسْرِ المُوَحَّدَةِ- أي البارِدِ، وشَبَّهَها بالماءِ في ذلكَ لِأَنَّها سبَبُ حياةِ الأرواحِ، وهو سبَبُ حياةِ الأشْباحِ، وجعَلَ موردَها وهو الفَمُ[١] كافياً في الإِطْفاءِ.

١٠١- كأنَّهـــا الحَوْضُ، تَبيَضُّ الوجوهُ بِهِ ... مِن العُصـــاةِ وقَدْ جاءوهُ كالحُمَمِ

كأنَّها أي الآياتِ **الحوضُ**، أي ماؤُهُ **تبيضُّ الوجوهُ بِه** -حالٌ من الحَوْضِ- **من العُصاةِ** -صِفَةٌ للوجوهِ أو بيانٌ إنْ أُريدَ بها الذواتِ- **وقَدْ جاءوهُ** من النارِ -حالٌ من العُصاةِ- **كالحُمَم** -بِضَمِ المُهْمَلَةِ وفَتْحِ الميمِ- **جمْعُ «حُمَمَة» بِمَعْنى فَحْمَةٍ**، وهو حالٌ من فاعِلِ «جاءوا».

ووجْهُ الشَّبَهِ أَنَّ آياتِ القُرآنِ لمَّا كانَتْ تَشْفَعُ في تاليها وقَدْ جاءَ مُسودَّ الوجْهِ من المَعاصي، فيبيضُّ وجْهُهُ بِشَفاعتِها فيهِ، شبَّهها بالحوضِ الذي تبيضُّ الوجوهُ مِن العُصاةِ بِهِ، ففي خبَرِ الصحيحين: **(فيُخْرَجونَ منْها فيُلقَوْنَ في نهْرِ**

---

(١) فالآيات تُتلى بالفم، لذلك كان موردَها.

الحياة)[١] وفي روايةٍ[٢]: فيصبُّ عليهم ماءُ الحياة، أي فيذْهَبُ السوادُ عنْهُم، ويظْهَرُ البياضُ.

١٠٢- وكالصِّراطِ وكالميزانِ مَعْدَلَــــــةً فالقِسْطُ مِن غَيْرِها في النَّاسِ لَمْ يقُمِ

وكالصِّراط -معْطوفٌ على جُمْلة التَشبيهِ عطْفَ صِفةٍ على صِفةٍ- أي آياتُ حقٍّ كالصِّراطِ، أي الطريقِ في الوصولِ بهِ إلى المَقْصودِ، **وكالميزانِ معْدَلَةً** أي عدْلاً، أي اسْتقامَةً، وهو تمييزٌ من الذي قبْلَهُ، **فالقِسْطُ** أي العَدْلُ **مِن غيرِها** أي الآياتِ، **في الناسِ لمْ يقُم**. و«مِن» و«في» مُتَعلِّقانِ بـ «يقُم».

لا يُقالُ: بلْ يقومُ مِن غيرِها فيهم، كالسُّنَّةِ والإجْماعِ، لأنا نقولُ: غيرُها راجِعٌ إليها بوسْطٍ[٣] أو دُونه، قالَ تعالى: ﴿وَمَآ آتَاكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ﴾[٤]، ومُسْتَنَدُ الإجْماعِ ونحوِهِ الكِتابُ والسُّنَّة، ولو بِوسْطٍ.

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب إثبات الشفاعة وإخراج الموحدين من النار، ولفظه عند مسلم بسنده عن أبي سعيد الخدري، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «يُدخِلُ الله أهلَ الجنة الجنة، يُدخِل من يشاء برحمته، ويُدخل أهل النار النار، ثم يقول: انظروا من وجدتم في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان فأخرجوه، فيخرجون منها حمما قد امتَحشوا، فيلقون في نهر الحياة أو الحيا، فينبتون فيه كما تنبتَ الحِبَّة [أي بُزور العُشب] إلى جانب السيل، ألم تروها كيف تخرج صفراء ملتويةً».

(٢) رواية أحمد في مسنده والطبراني في المعجم الأوسط.

(٣) أي واسطة.

(٤) سورة الحشر - من الآية ٧

١٠٣- لا تَعْجَبَنْ لِحَسودٍ راحَ يُنْكِرُهــــا تجاهُلاً وهو عينُ الحـــاذِقِ الفَهِمِ

لا تعجَبَنْ -ببنائِهِ على الفَتْحِ لاتِّصالِ نونِ التوكيدِ بِهِ- **لِحَسودٍ راحَ** أي ذَهَبَ، والحَالَةُ أنه **يُنْكِرُها**، أي الآياتِ **تجاهُلاً** -بنَصْبِهِ مفْعولاً لهُ، أو حالٌ من فاعِلِ «يُنْكِرُها»، أي مُتَجاهِلاً بها، **وهو** -أي والحالَةُ أنَّ الحَسودَ- **عينُ الحاذِقِ** -بذالٍ مُعْجَمَةٍ- أي الماهِرِ **الفَهِمِ** أي الشَّديدِ الفَهْمِ، لِما اشْتَمَلَتْ عليهِ من أنواعِ الإعْجازِ، الدَّالَّةِ على صِدْقِ النَّبي صلى الله عليه وسلم، الجائي بها عن الله تعالى، فإنْكارُها المكذِّبُ له[1] عنادٌ، دعا إليهِ الحَسَدُ لهُ صلى الله عليه وسلم على نِعْمَةِ الرِّسالَةِ، فلا عجَبَ في إنْكارِها للحَسَدِ، فإنَّ الموجودَ قدْ يُنْكَرُ لأمرٍ ما، كما في قوله:

١٠٤- قَدْ تُنْكِرُ العينُ ضوْءَ الشَّمْسِ مِن رَمَدٍ ويُنْكِرُ الفَمُ طَعْمَ المـــاءِ مِن سَقَمِ

قد تُنْكِرُ العينُ ضوْءَ الشَمْسِ، أي تَنْفي وجودَهُ **من أجْلِ رمَدٍ** بِها، تظُنُّهُ غيرَ مانِعٍ من الرُّؤيةِ، **ويُنْكِرُ الفَمُ طعْمَ الماءِ من أجْلِ سَقَمٍ** أي مرَضٍ بِهِ، يظُنُّهُ غيرَ مانِعٍ من الاسْتِطْعامِ. ولا محَلَّ لِلجُمْلَتيْنِ، لأنَّهُما تعليليتانِ، فهُما مُسْتَأْنَفتانِ.

*****

(١) أي إنكارها الداعي إلى تكذيبه صلى الله عليه وسلم.

الفصل السابع: في إسرائه ومعراجه[1]
صلى الله عليه وسلم

١٠٥- يا خَيْرَ مَنْ يَمَّمَ العَافُونَ ساحَتَهُ سَعْياً وفَوقَ مُتونِ الأَيْنُقِ الرُّسُمِ

يا خيرَ من يمَّمَ العافونَ، أي قصَدَ الطالبونَ للمَعْروفِ[2] **ساحَتَهُ**، أي حريمَ دارِهِ الواسعِ، **سعياً** -حالٌ بمَعْنى ساعينَ- أي مُسْرِعينَ في المشي، **وراكِبين فوقَ مُتونِ** أي ظُهورِ **الأينُقِ** جمْعُ «ناقَة» -وأَصْلُهُ «أَنْوُق» قُدِّمَتْ الواوُ ثمَّ قُلِبَتْ باءً تَخْفيفاً- **الرُّسُم** -بِضَمِّ الراءِ والسينِ- **جمْعُ** «رسوم»، وهي الناقَةُ التي تُؤَثِّرُ في الأَرضِ من شِدَّةِ الوطءِ.

١٠٦- ومَنْ هو الآيةُ الكُبْرَى لِمُعْتَبِرٍ ومَنْ هو النِّعْمةُ العُظْمى لِمُغْتَنِمِ

ويا **من هو الآيةُ الكُبْرى** التي هي أَكْبَرُ الآياتِ **لِمُعْتَبِرٍ** يتأَمَّلُ ويتَفَكَّرُ، ويا **من هو النِّعْمةُ العُظْمى**[3] التي هي أَعْظَمُ النِّعَمِ **لِمُغْتَنِمٍ** لها، أي لمُتَّخذِها غنيمَةً.

(١) لمزيد من المعلومات حول الإسراء والمعراج، يراجع كتاب «الكلمات الطيبات في المأثور عن الإسراء والمعراج من الروايات» لفضيلة العلامة محمد بخيت المطيعي مفتي الديار المصرية سابقا، والذي أصدرته «كشيدة للنشر والتوزيع» ضمن سلسلة «تراث الأزهريين» أيضا.

(٢) يُقالُ «عفا فلاناً» أتاه يطلبُ فضلَه ومعروفَه.

(٣) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [سورة آل عمران - من الآية ١٦٤].

و«الآيةُ» العَلامَةُ الصادِقَةُ بالدَّليلِ، يعْتَبرُ بها من يُريدُ أنْ يعْرفَ الحَقَّ من الباطلِ، و«النِّعْمَةُ» بمَعْنى المُنْعمِ به. وهو صلى الله عليه وسَلَّمَ أكْبَرُ الآياتِ وأعْظَمُ النِّعَم، لأنَّهُ دالٌّ على الحَقِّ، مُغْتَنمٌ في جميع ما يأتي به، قالَ تعالى لهُ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ﴾[1]، أي تدُلُّ على دينِ الإسلام، ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةٗ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾[2] أي ذَا رحْمَةٍ لهُم. واللامُ في «لِمُعْتَبِرٍ»، و«لِمُغْتَنِم» مُتَعلِّقَةٌ بما قبْلَها.

١٠٧- سَرَيْتَ مِنْ حرَمٍ ليلاً إلى حَـــــرمٍ كما سَرَى البدْرُ في دَاجٍ مِنَ الظُّلَـمِ

سريت أي سرْتَ، **من حرم ليلاً** أي فيه، **إلى حرَم**. قالَ تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلٗا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾[3]، ومَن أسْرى بِهِ الله تعالى فقدْ سرى، وكُلٌّ مِن المَسْجدينِ يُسَمّى حَرَماً.

وذِكْرُ الليلِ مع السَّرى في النَّظْم، والإسراءِ في الآيةِ، اللذين لا يكونانِ إلا بالليلِ، للإعْلام بأنَّهُما في جُزْءٍ من الليلِ بقرينَةِ تنكيرِهِ لأنَّهُ للتَّقْليل، أي سرَيْتَ في بعْضِهِ، **كما سرى البدْرُ** -ما مصْدَريةٌ- أي كسَرْيِ القَمَرِ ليلَةَ كمالِهِ **في داجٍ** كائنٍ **من الظُّلَم**، أي في ليلٍ مُظلم، يُقالُ «دجى الليلُ» إذا أظْلَمَ، فهو داجٍ، ووجْهُ الشَّبَهِ سُرْعَةُ السيرِ وكمالُ الإنارة.

(١) سورة الشورى – من الآية ٥٢
(٢) سورة الأنبياء – الآية ١٠٧
(٣) سورة الإسراء – من الآية ١

١٠٨- وبتَّ تَرْقَـــــى إلى أنْ نِلْتَ منْزِلَةً مِنْ قابِ قَوْسينِ لمْ تُدْرَكْ ولَمْ تُـرَمِ

وبتَّ ترقى، أي تصْعَدُ ليلَةَ الإسْراء منازلَ العُلوِّ باخْتِراقِ السموات السَبْعِ كما سيأتي[1]، **إلى أنْ نلْتَ منْزِلَةً** أي مرتَبَةً، **من** -للبيان- **قاب** أي قدْرِ **قوسين** طولا في القُرْبِ من الله تعالى، كما قالَ تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾[2]، أي أنَّهُ في القُرْبِ منْهُ[3] كقُرْبِ الواحِدِ من آخَرِ بِقَدْرِ قوسينِ أو أقَلّ، لا قُرْبَ مكان، لأنَّهُ تعالى مُنَزَّه عنْهُ، بل قُرْبُ تشْريفٍ وتقْريبُ منْزِلَةٍ، **لم تُدْرَكْ** تلكَ المَنْزِلَةُ، **ولَمْ تُرَم** أي لم يصِلْها أحَدٌ غيرُكَ ولم يطْلُبْها.

١٠٩- وقَدَّمتْكَ جَميعُ الأنْبيـــــــاءِ بها والرُّسْلِ تقْديمَ مَخْدوم على خَـدَمِ

وقدَّمَتْكَ جَميعُ الأنْبياءِ عليهم **بها**، أي بِسَبَبِ تلْكَ المَنْزِلَة، **وقدَّمَتْكَ** أيضاً جميعُ **الرُّسْلِ** بها -بإسْكانِ السينِ- **تقْديمَ** -بالنَّصْبِ مصْدَرٌ مُشَبَّهٌ بِه- أي كتَقْديمِ **مخْدوم على خدَمٍ** في المَنْزِلَةِ. وعَطْفُ الرُّسُلِ على الأنبياءِ من عطْفِ الخاصِّ على العامِّ[4].

---

(١) يقول الباجوري: وبعد وصولك إلى بيت المقدس بت ترقى أي تصعد، فإنه صلى الله عليه وسلم نُصِب له معراجٌ، له مرقاة من فضة ومرقاة من ذهب، وهو الذي تعرج عليه أرواح المؤمنين.

(٢) سورة النجم - الآيتان ٨ و ٩

(٣) والمراد هنا القرب المعنوي كما شرحه شيخ الإسلام القاضي زكريا الأنصاري.

(٤) لأن كل رسولٍ نبيٌّ، وليس العكس، والمراد هنا تقديمهم إياه في بيت المقدس حيث صلى بهم إماما. روى مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب في ذكر المسيح ابن مريم والمسيح الدجال، بسنده عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لقد رأيتني في الحِجر وقريش تسألني عن مسراي، فسألتني عن أشياء من بيت المقدس لم أثبتها، فكربت كربة ما كربت مثله قط، قال: فرفعه الله لي أنظر إليه، ما يسألوني عن شيء إلا أنبأتهم به، وقد رأيتني في جماعة من الأنبياء، فإذا موسى قائم يصلي، فإذا رجل ضرب جعد كأنه من رجال شنوءة، وإذا عيسى ابن مريم عليه السلام قائم يصلي أقرب الناس به شبها عروة بن مسعود الثقفي، وإذا إبراهيم عليه السلام قائم يصلي أشبه الناس به صاحبكم يعني نفسه، فحانت الصلاة فأممتهم ..

١١٠- وأنتَ تخْتَرِقُ السَّبْعَ الطِّبــاقَ بِهِمْ   في موكِبٍ كُنْتَ فيه صاحِبَ العَلَم

وأنت -أي والحالُ أنَّكَ- **تخْتَرِقُ** السمواتِ **السَّبْعَ الطِّباقَ**، أخْذاً من قولِه تعالى: ﴿سَبْعَ سَمَاوَتٍ طِبَاقاً﴾[1] أي بعْضُها فوقَ بعْضٍ، ماراً **بِهِمْ**.

ففي خبَرِ الإسْراءِ في مُسْلِم[2] أنَّهُ صلى الله عليه وسلَّم مرَّ في السَّماءِ الدُّنيا بِآدَمَ عليهِ السَّلامُ، وفي الثانيةِ بعيسى ويحيى عليهِما السلامُ، وفي الثالثةِ بيوسُفَ عليهِ السلام، وفي الرابِعَةِ بإدْرِيسَ عليه السلام، وفي الخامِسَةِ بهارونَ عليهِ السلام، وفي السادِسَةِ بموسى عليهِ السلام، وفي السابعَةِ بإبراهيمَ صلى اللهُ عليهم وسَلَّمَ.

فقولُ النَّاظم «جميعُ الأنبياءِ والرُّسْلِ»[3] أي الذيَن لقيهُم، وقالَ بعْضُهُمْ: ويُحْتَمَلُ أن لا يُقيَّدوا بذلك، بأنْ يكونوا قد اطَّلعوا على منْزِلَتِه هذه بالوحي في حياتِهِم، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَاقَ ٱلنَّبِيِّينَ﴾[4] الآيةُ، أو كانَ ذلكَ في ليَلةِ الإسْراءِ بأرواحِهِم خاصَّةً، أو بها مع أجْسامِهِم، كما يدُلُّ لهُ ما جاءَ في خبَرِ الإسْراءِ، مِن أنَّ جماعَةَ الأنبياءِ أثْنَوا على اللهِ عز وجل في تِلْكَ الليلَةِ، وكانَ رسولُ اللهِ صلى الله عليهِ وسَلَّمَ آخِرَهُمْ في ذلِك، فأَثْنى على مولاهُ سُبْحانَهُ وتعالى بما أُلهِمَهُ، فقالَ الخَليلُ عِنْدَ ذلِكَ: «بِهذا فَضَلَكُم مُحَمَّدٌ صلى الله عليه وسلم»[5].

(١) سورة الملك – من الآية ٣

(٢) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السماوات وفرض الصلوات.

(٣) في قوله في البيت الذي سبق «وقدمتك جميع الأنبياء بها والرسل».

(٤) سورة آل عمران – من الآية ٨١

(٥) رواه الهيثمي في كشف الأستار.

في موكِبٍ -بكَسْرِ الكافِ- أي جمْعٍ عظيمٍ بهيئةٍ عظيمةٍ، إذ كانَ معهُ جِبْرِيلُ وميكائيل، وما أعْظَمَهُما وأعْظَمَ هيئتِهما، **كُنْتَ فيه صاحِبَ العَلَم**، أي المُشارُ إليه، و«العَلَمُ» الرُّمْحُ في رأسِهِ رايةٌ، ومن شأنِهِ أن يُشارَ إليه، وقَدْ كانَ جِبْرِيلُ يسْتَفْتِحُ في كُلِّ سماءٍ، فيُقالُ لهُ: ومَن معَك؟ فيقولُ: مُحَمَّدٌ.

و«في موكِبٍ» حالٌ من فاعِلِ «تخْتَرِقُ»، أو خبَرٌ ثانٍ لـ «أنْتَ»، وجُمْلَةُ «كُنْتَ» صِفَةٌ لـ «موكِبٍ».

١١١- حتَّى إذا لَمْ تَدَعْ شَــــأْواً لِمُسْتَبِقٍ مِنَ الدُّنُوِّ ولا مَرْقىً لِمُسْتَنِــــــم

حتى إذا لمْ تدَعْ شأواً أي تتْرُكْ غايةً، **لِمُسْتَبِقٍ** أي ساعٍ ليَسْبِقَ، **من الدُّنُوِّ** أي القُرْبِ، **ولا مرْقىً** أي موضِعَ رُقِيٍّ، أي درَجَةً **لِمُسْتَنِمٍ**، أي لطالِبِ رِفْعَةٍ، من «اسْتَنَم» أي «علا».

و«حتى» غايةٌ لاخْتراقِه[1]، و«إذا» ظرْفيةٌ مجازيةٌ، وكُلٌّ من «لِمُسْتَبِقٍ» و«لِمُسْتَنِمٍ» مُتَعلِّقٌ بما قبْلَه، أو بـ «تدَعْ»، وكذا «مِن الدُّنُوِّ»، و«مِن» على الأولِ للبيانِ وعلى الثاني للابْتداءِ، و«لا مرقى» عطفٌ على «شأواً» بزيادَةِ «لا» لتأْكيدِ النَّفي.

أي وأنْتَ تخْتَرِقُ السَّبْعَ الطِباقَ إلى مقامِ القُرْبِ، لمْ تُدرِكْ منْهُ ما ذُكِرَ[2]، بل تجاوزْتَ ذلكَ إلى أعْلى مقاماتِ القُرْبِ، وهو المُعَبَّرُ عنْهُ فيما مرَّ بقابِ قوْسَينِ.

(١) من قوله «وأنت تخترق السبع الطباق» في البيت السابق.
(٢) أي لم تدرك ما ذكر فحسب، بل تجاوزت ذلك.

١١٢- خفَضْتَ كُلَّ مَقام بِالإضــــافَةِ إذْ نُوديتَ بِالرَّفْعِ مِثْلَ المُفْرَدِ العَلَــمِ

خفَضْتَ -جوابُ «إذا»- أي حطَطتَ **كُلَّ مقامٍ** لغيرِكَ مِن الأَنْبياءِ، **بالإضافَةِ** إلى مقامِكَ[1]، **إذ نُوديتَ بالرَّفْعِ** إلى مقامِ قابَ قوسينِ الذي لم يصِلْهُ غيرُكَ، **مِثْلَ المُفْرَدِ العَلَمِ** أي المُشارِ إليهِ فيما أُفْرِدَ بِهِ من بينِ أفْرادِ صُنْعِه.

و«بالإضافَةِ» مُتَعَلِّقٌ بـ «خفَضْتَ»، والباءُ للمُصاحَبَةِ، و«إذْ» حرفُ تعْليلٍ، و«بالرَّفْعِ» مُتَعَلِّقٌ بـ «نُوديتَ»، والباءُ سبَبيةٌ أو حالٌ من التاءِ، والباءُ للمُصاحَبَةِ، و«مِثْلَ» حالٌ من تاءِ نُوديتَ.

١١٣- كَيْمَـــــا تَفُوزَ بِوَصْلٍ أيِّ مُسْتَتِرٍ عَنِ العُيُــــونِ وسِرٍّ أيِّ مُكْتَتَمِ

كيما تفوزَ -بالنَّصْبِ بـ «أنْ» مُقَدَّرَةً، و«كَي» حرفُ جرٍّ بِمَعْنى لامِ التعليلِ، و«ما» مصْدَريةٌ أو زائدةٌ، ومَجْموعُ ذلكَ علَّةٌ غايةٍ لـ «سريتَ»، و«بتَّ».. إلى آخرِه[2]- أي فعَلْتَ ذلكَ، مُنْتَهياً إلى منْزِلَةِ قابَ قوسينِ لِتَفوزَ **بوصْلٍ** من اللهِ، **أيِّ مُسْتَتِرٍ عنِ العُيونِ، وسرٍّ أيِّ مُكْتَتَمٍ** عن الخَلْقِ -بِجَرِّ «أيِّ» في الموضِعينِ صِفَةً لما قبْلَها- دالَّةً على معْنى الكَمالِ، أي بوصْلٍ كاملٍ في الاسْتِتارِ، وبِسرٍّ كامِلٍ في الاكْتِتامِ[3].

(١) يقول الإمام الباجوري: الأنبياء كلهم متصفون بالكمال، لكنه صلى الله عليه وسلم أكمل، فمقام غيره منخفض بالنسبة لمقامه المرتفع عن مقام كل مخلوق، وإن كان ذلك المقام المنخفض مرتفعا في نفسه، وإنما انخفض بالنسبة لمقامه صلى الله عليه وسلم.

(٢) مما هو مذكور في الأبيات السابقة.

(٣) أي سر في غاية الاكتتام، وأشار به إلى ما تشرف به النبي صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء، لأنه انتهى به إلى مكان يسمع فيه صريف الأقلام.

وهذا السِّرُ مأخوذٌ ممَّا رُوِيَ أَنَّ عائشَةَ رضي الله تعالى عنها قالَتْ: يا رسولَ الله، ما الذي أوْحى إليكَ ربُّكَ إذ قالَ: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَآ أَوْحَىٰ﴾[1]، قالَ: يا عائشَةَ أتُريدينَ أنْ تعْلَمي ما لا يعْلَمُهُ جبْريلُ ولا ميكائيلُ ولا نبيٌّ مُرْسَلٌ ولا مَلَكٌ مُقَرَّبٌ، فقالتْ: أسْألُكَ بأبي بكرٍ إلا ما أعلمْتَني، فقالَ: إنِّي لمَّا كُنتُ قابَ قوسينِ، قُلْتُ: اللهُمَّ إنَّكَ عذَّبْتَ الأُمَمَ بعْضَهُم بالحِجارةِ، وبَعْضَهُم بالمَسْخِ، وبَعْضَهُم بالخَسْفِ، فما أنْتَ فاعِلٌ بأُمَّتي، قال: أُنْزِلُ عليهم الرَّحْمةَ من عنانِ السَّماءِ، وأُبَدِّلُ سيئاتِهم حسَناتٍ، ومَن دعاني منْهُم لبَّيْتُهُ، ومَن سألني منهم أعْطيتُهُ، ومَن توكَّلَ عليَّ كفيْتُهُ، وفي الدُّنيا أسْتُرُ العُصاةِ، وفي الآخرة أُشَفِّعُك فيهم[2].

١١٤- فحُزْتَ كُلَّ فَخَـــــارٍ غيرَ مُشْتَرَكٍ	وجُزْتَ كُلَّ مَقَامٍ غيرَ مُزْدَحَـــــم

فحُزْتَ -بحاءٍ مُهْمَلةٍ وزاي مُعجَمة- أي جمَعْتَ **كُلَّ فخارٍ**، أي ما يُفْخَرُ به من الفَضائلِ **غيرَ مُشْتَرَكٍ** فيه، **وجُزْتَ** -بجيم وزاي مُعجمة- أي عبَرْتَ **كُلَّ مقامٍ غيرَ مُزْدَحَمٍ** فيه -بفَتْحِ الحاءِ- و«غيرَ» في الموضِعينِ منْصوبٌ أو مجْرورٌ، صِفةٌ لـ «كُلِّ» أو لِما أُضيفَ إليه «كل».

(١) سورة النجم – الآية ١٠

(٢) لم نعثر فيما توفر لنا من مراجع على هذه الرواية. وفي تفسيره لهذه الآية، يقول الإمام القرطبي: «ثم قيل: هذا الوحي هل هو مبهم؟ لا نَطلع عليه نحن وتُعُبِّدْنا بالإيمان به على الجملة، أو هو معلوم مفسر؟ قولان. وبالثاني قال سعيد بن جبير، قال: أوحى الله إلى محمد: ألم أجدك يتيماً فآويتك! ألم أجدك ضالاً فهديتك! ألم أجدك عائلاً فأغنيتك! ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ * وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ * ٱلَّذِيٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ * وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [سورة الشرح: الآيات ١-٤]. وقيل: أوحى الله إليه أن الجنة حرام على الأنبياء حتى تدخلها يا محمد، وعلى الأمم حتى تدخلها أمتك».

١١٥- وجَلَّ مقْدارُ مــــا وُلِّيتَ مِنْ رُتَبٍ   وعَزَّ إدْراكُ مــــا أُوليتَ مِن نِعَم

وجَلَّ أي عظُمَ **مقْدارُ ما وُلِّيتَ** -بالبناءِ للمَفْعولِ- **من رُتَبٍ**، أي مناصبَ شريفةٍ فلا يُحاطُ بِه، **وعَزَّ إدْراكُ ما أُوليتَ** -بالبناءِ للمَفْعولِ- أي أعطيتَ **من نِعَم** جمْعُ «نِعْمَةٍ»، بِمَعْنى مُنْعَمٍ بِهِ، أي امْتَنَعَ واسْتَعْصى إدراكُهُ بِكَمالِهِ.

وجُمْلَةُ «جَلَّ» مُسْتَأْنَفَةٌ أو معْطوفَةٌ على ما قبْلَها، وكذا جُمْلَةُ «عزَّ».

١١٦- بُشْرَى لَنا مَعْشَرَ الإِسْلامِ، إنَّ لنــــا   مِن العِنــــايةِ رُكْناً غيرَ مُنْهَدِمِ

بُشْرى مِن «البِشارَةِ» وهي الخَبَرُ السارُ، وبُشْرى خبَرُ مُبْتَدَأٍ مَحْذوفٍ، أي «هذهِ المَناقِبُ بُشْرى»، أو مُبْتَدَأٌ وإنْ كانَ نكرَةً لِكونِها في معْنى نكرَةٍ موصوفَةٍ، **لنا** صِفَةٌ على الأولِ وخَبَرٌ على الثاني، **معْشَرَ الإِسْلامِ** أي جمعَ المُسْلمينَ، بالنَّصْبِ على الاخْتِصاصِ أو النِّداءِ.

وبيَّنَ البُشْرى المُنادى بها بقولِه: **إنَّ لنا من العنايةِ** بنا في الأزَلِ **رُكْناً** عظيماً **غير مُنْهَدِمٍ**، أي شريعَةً باقيةً غيرَ منْسوخَةٍ[1]. و«الرُّكْنُ» ما يُعْتَمَدُ عليهِ، و«الانْهِدامُ» التَغيُّرُ.

(١) يقول ابن العماد الأقفهسي في شرحه لهذا البيت: وأراد بالركن إما الإسلام، وإما النبي صلى الله عليه وسلم، أو القرآن، وذلك الركن هو المبشر به أو هو سبب البشارة.

١١٧- لمَّا دَعَـــــا اللهُ داعينا لِطاعَتِه   بِأَكْرَمِ الرُّسْلِ كُنّا أَكْرَمَ الأُمَـــــمِ

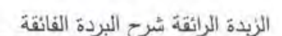
لمَّا دعا اللهُ، أي سمّى **داعينا** أي النَّبِيَ صلى الله عليه وسلم، مفْعولٌ أولٌ لـ «دعا» -لكنَهُ سكَّنَ الياءَ على قِلَّةٍ[١]- وقيلَ «داعينا» بدَلٌ من فاعِلِ «دعا» فهو اللهُ تعالى، **لطاعَتِه**، مُتَعَلِّقٌ بـ «داعينا»، أو بـ «دعا»، **بأَكْرَمَ الرُّسْلِ**، مَفْعولٌ ثانٍ لـ «دعا» وجوابٌ لـ «ما»، **كُنّا أكرَمَ الأُمَمِ** عِنْدَ اللهِ تعالى لأنَّ شرفَ الأُمَّةِ بِشَرَفِ نبيِّها[٢]، قالَ تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾[٣] أي أنْتُمْ خيرُها.

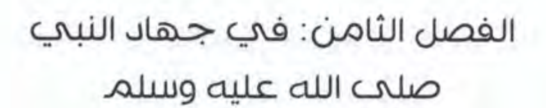
*****

(١) إذ كان حقُّها النصبَ على المفعولية «داعِيَنا».

(٢) يقول ابن العماد الأقفهسي في شرح هذا البيت: لما سمى الله داعينا محمدا صلى الله عليه وسلم بأكرم الرسل، حيث اصطفاه من خير القبائلِ وجعله سيد ولِد آدم، كنا أكرم الأمم، شَرَفْنا بشَرَفِه صلى الله عليه وسلم. قال الله تعالى ﴿وكذلك جعَلْناكم أمَّةً وَسَطًا﴾ [سورة البقرة - من الآية ١٤٣] والوسط من كل شيء خياره.

(٣) سورة آل عمران - من الآية ١١٠





الفصل الثامن: في جهاد النبي صلى الله عليه وسلم

١١٨- راعَتْ قُلُوبَ العِدا أنبـــاءُ بَعْثَتِهِ   كَنَبْأَةٍ أجْفَلَتْ غُفْلاً مِنَ الغَنَـــمِ

راعَتْ -براءٍ وعينٍ مُهْمَلَةٍ- أي أفْزَعَتَ **قُلوبَ العدا** -بِكَسْرِ العينِ وضَمِّها والقَصْرِ- جمْعُ «عدو» أي الكُفَّارِ، **أنباءُ بَعْثَتِه** أي أخْبارُ رسالتِه لِغَفْلَتِهِم عنْها، حالة كونها **كنَبْأَةٍ** أي زأْرَةِ الأسَدِ، **أجْفَلَتْ** -بجيم- أي أفْزَعْتَ، **غُفْلا** -بِضَم الغين المُعْجَمَةِ- جمْعُ «غافِلٍ» -كبازِلٍ وبُزْلٍ- **من الغَنَم** فأسْرَعتْ في الهَرَبِ منْها، ولو لمْ تكُنْ غافِلَةٍ عنْها لما جفَلَتْ منْها.

كذَلِكَ الكُفَّارُ، لو كانوا مُلْتَفِتينَ إلى بعثته صلى الله عليه وسَلَّمَ ليُؤْمِنوا بِهِ لما فزِعوا منْها، وفي خبَرِ الصحيحينِ: (نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مسيرَةَ شهْرٍ)[1]، ورَوَى الطَّبَرانيُ: (نُصِرْتُ بالرُّعْبِ شَهرين)، والمُرادُ بِهِ ما في رِوايةٍ: (ونُصِرْتُ بِالرَّعْبِ شهْراً أمامي، وشهْراً خلْفي)[2]، ويُقاسُ بِهِما اليمينُ والشِّمالُ، فيكونُ المُرادُ بالخَبَرِ الأولِ شهْراً من أي جِهَةٍ كانَ بِها العَدوُّ من الجِهاتِ الأربَعِ.

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم «نصرت بالرعب مسيرة شهر»، وفي صحيح مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب، بسنده عن جابر بن عبد الله عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلي: كان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى كل أحمر وأسود، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي، وجعلت لي الأرض طيبة طهورا ومسجدا فأيما رجل أدركته الصلاة صلى حيث كان، ونصرت بالرعب بين يدي مسيرة شهر، وأعطيت الشفاعة».

(٢) رواه الطبراني في المعجم الكبير بسنده عن السائب بن يزيد، وفيه: «ونصرت بالرعب شهرا أمامي وشهرا خلفي».

وجُمْلَةُ «راعتْ» مُسْتَأنَفَةٌ، وقولُهُ «أجْفَلَتْ» صِفَةُ «نبْأَةٍ»، و«غُفْلا» مفعولُ «أجْفَلَتْ»، و«مِن الغَنَم» صِفَةٌ لهُ، و«مِن» للبيانِ، وقيلَ للتَبْعيضِ.

١١٩- ما زالَ يلقـــــاهُمْ في كُلِّ مُعْتَرَكٍ حتى حَكَوْا بالقَنا لحْماً على وَضَـمِ

ما زالَ يلقاهُمُ -بالضمِّ والإشْباعِ- **في كُلِّ مُعْتَرَكٍ** -بِفَتْحِ الراءِ- أي مكانِ الاعْتِراكِ، أي الازْدِحامِ في الحَرْبِ، **حتى** -غايَةٌ للقائهِ إيّاهُم- **حَكَوْا** أي شابَهوا **بالقنا** -بالقَصْرِ- جمْعُ «قناةٍ» وهي الرُمْحُ، أي بِسَبَبِ طعْنِهم بها، **لحْماً** كائناً **على وَضَم** -بِمُعجَمَةٍ- وهو ما يضَعُ القَصَّابُ اللحْمَ عليه، مُعَدّاً لِمَنْ يأْخُذُه. أي أنَّهُ صلى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ جاهَدَ الكُفَّارَ، حتى تركَهُم قتْلى، مُعدِّينَ لأكْلِ السِّباعِ والطيورِ لُحومَهُم.

و«حكَوا» أصْلُهُ «حكيوا»، قُلِبَتْ الياءُ ألِفاً لِتَحَرُكِها وانفِتاحِ ما قبْلَها، ثُمَّ حُذِفَتْ لالْتِقاءِ الساكِنَيْن.

١٢٠- وَدُّوا الفِرارَ، فَكَادُوا يَغْبِطونَ بِـــهِ أشْلَاءَ شالَتْ مَعَ العِقْبَـانِ والرَّخَمِ

ودُّوا الفرارَ منْهُ صلى اللهُ عليهِ وسَلَمَ أي تَمَنَّوْهُ، **فكادُوا يغْبِطونَ**[1] -بالبناءِ للفاعِلِ- **به أشْلاءَ** -بِفَتْحِ أولِهِ ومَنْعِ صَرْفِهِ للوَزنِ- جمْعُ «شِلو» -بِكَسْرِ الشينِ- وهو العُضْوُ، **شالَتْ** -أي الأشْلاءُ- أي ارْتَفَعَتْ **مع العقْبانِ** -بِكَسْرِ العينِ- **والرَّخَمِ**، جمْعُ «عِقابٍ» و«رُخْمَةٍ» نوعانِ من الطيرِ، يقَعانِ على الميتاتِ يأْكُلانِ منْها ويحْملانِ منْها لِفَراخِهما.

(١) أي يحسدون تلك الأشلاء لأنها وجدت من يفر بها.

وجُمْلَةُ «ودُّوا» مُسْتَأْنَفةٌ، و«الغبْطَةُ» تمَنِّي أنْ يحْصُلَ لهُ مِثْلَ ما حصَلَ لغيرِهِ من غيرِ أنْ يُريدَ زوالَها عنْهُ. أي قاربوا أن يتَمَنَّوا أنْ يحْصُلَ لهُمْ مِثْلَ ما حصَلَ لأعْضاء، ارْتَفَعَتْ بِها الطُّيورُ، ليتَخَلَّصوا مِن جِهادِ النَّبي صلى الله عليهِ وسَلَّمَ ولا يُؤمِنوا بِهِ.

١٢١- تَمْضي اللَّيالي ولا يَدْرونَ عِدَّتَهَـــا ما لمْ تكُنْ مِنْ لَيـالي الأَشْهُرِ الحُرُمِ

تمْضي أي تذْهَبُ عليهِمُ **الليالي** بأيامِها، **ولا يدْرونَ** أي يعْلَمونَ **عِدَّتَها** مِن شِدَّةِ هُمومِهِم بِجِهادِ النَّبي صلى الله عليه وسلم لهُمْ، **ما لمْ تكُنْ** أي مُدَةَ عدَمِ كونِ الليالي بأيامِها **من ليالي الأشْهُرِ الحُرُمِ**، ذي القَعْدَةِ وذي الحِجْة والمُحَرَّمِ ورَجَب، فإنَّهُم يدْرونَها وعِدَّتَها بإمْساكِ النَّبيِ صلى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ عن القِتالِ فيها. وجُمْلَةُ «تمْضي الليالي» مُسْتَأنَفة.

١٢٢- كَأنَّما الدِّينُ ضَيْفٌ حَلَّ سَـــاحَتَهُمْ بِكُلِّ قَرْمٍ إلى لَحْمِ العِــــدَا قَرِمِ

كأنَّما الدِّينُ وهو الإسْلامُ، و«ما» زائِدَةٌ، أي كأنَّ الإسْلامَ **ضيفٌ حلَّ** أي نزَلَ **ساحَتَهُمْ**، أي العِدا، **بِكُلِّ قَرْم** -بِفَتْحِ القافِ وإسْكانِ الراءِ- أي سيِّدٍ مِن الصَّحابَةِ رضي الله تعالى عنهم، والباءُ للمُصاحَبَةِ أو للتَعْديةِ، **إلى لحْمِ العدا** أي الكُفَّارِ، -وفيهِ إقامَةُ الظَّاهِرِ مقامَ المُضْمَرِ- **قرِم** -بِكَسْرِ الراءِ- أي شديدِ الشَّهوةِ، بِأنْ تُصيِّرَهُم الصَّحابَةُ رضي الله عنهم قتلى لُحوماً مُعَدَّةً لأكْلِ الجوارِحِ.

و«إلى» غايةٌ لـ «قرِم» -بِكَسْرِ الراءِ- وهو صِفَةٌ لـ «قرْم» بإسْكانِها.

١٢٣- يجُرُّ بحْرَ خميسٍ فَوْقَ سَـــــابِحَةٍ   يرْمى بِمَوْجٍ مِنْ الأبْطـــالِ مُلْتَطِم

يجُرُّ ذلكَ السيِّدُ أي يقودُ، **بحْرَ خميسٍ** أي جيشاً كالبَحْرِ في تموُّجِهِ وإهْلاكِه للكُفَّارِ، **فوقَ** خيلٍ **سابِحَةٍ** أي جاريةٍ.

يرْمي ذلكَ الجيشُ **بِمَوجٍ** صادرٍ **من الأبْطالِ**، جمْعُ «بطَلٍ» أي شُجاعٍ، **مُلْتَطِم** بعْضُهُ ببَعْضٍ لهيجانِه، والمُرادُ بِه الأفْعالُ الواصِلَةُ للكُفَّارِ بآلاتِ القِتالِ من طَعْنٍ وقَتْلٍ وغيرِهما. وإضافةُ «بحْر» إلى «خميس» من إضافة الصِّفةِ إلى الموصوفِ كما أشَرْتُ إليه، وسُمِّيَ «جيشُ خميس» لأنَّهُ خمْسَةُ أجْزاءٍ: مُقَدِّمَةٌ، وقَلْبٌ، وميمَنَةٌ، وميسَرَةٌ، وساقَةٌ[١]. وباءُ «بِموجٍ» لِلمُصاحَبَةِ.

١٢٤- من كُلِّ مُنْتَدَبٍ لِله مُحْتَسِـــــبٍ   يَسْطو بِمُسْتَأْصِلٍ للكُفْرِ مُصْطَلِـــم

من كُلِّ مُنْتَدَبٍ -بِفَتْحِ المُهْمَلَةِ- وهو بدَلٌ من قولِه «من الأبْطالِ»، أو صِفَةٌ بعدَ صِفَةٍ لـ «موجٍ»، أي مدْعُوٌّ **لله مُحْتَسِب** ذلِكَ -بِكَسْرِ السينِ- أي طالِبٍ بعَمَلِه من اللهِ تعالى الأَجْرَ والثوابَ.

يسْطو ذلكَ المُنْتَدَبُ أي يصولُ، **بِمُسْتَأصِلٍ** -بكَسْرِ الصادِ- **للكُفْرِ** أي لأَهْلِه، **مُصْطَلِم** لهُم، من آلاتِ القتالِ من سيفٍ وغيرِه. يُقالُ «اسْتَأْصَلَهُ» قلَعَهُ من أَصْلِه، و«اصْطلَمَهُ» أهْلَكَهُ، وفي الصِّحاحِ والقاموسِ[٢]: «الاصْطِلامُ» الاسْتِئْصالُ. وباءُ «بِمُسْتأصِلٍ» للاسْتِعانَةِ.

(١) الساقة من الجيش هي المؤخرة.

(٢) صحاح اللغة للجوهري، والقاموس المحيط للفيروزآبادي، من أشهر المعاجم العربية.

١٢٥- حَتى غَدَتْ مِلَّةُ الإِسْلامِ وهي بِهِـمْ   مِن بَعْدِ غُرْبَتِهـــا مَوْصُولَةَ الرَّحِمِ

حتى مُتَعَلِّقَةٌ بـ «يسْطو»[1]، **غدَتْ** -بغينٍ مُعجَمَةٍ- أي صارتْ **مِلَّةُ الإسْلامِ**، من إضافَةِ الأعمِّ إلى الأخصِّ، **وهي** -أي المِلَّةُ- قائمَةٌ **بهِمْ**، أي بالصَّحابةِ الأبْطالِ، والباءُ للسَّبَبِيَةِ أو للمُصاحَبَةِ، وجُمْلَةُ «وهي بِهِمْ» اعْتِراضٌ، **من بعْدِ غُرْبَتِها** مُتَعَلِّقٌ بِقولِهِ **موصولَةَ الرَّحِم** -بالنَّصْبِ- خبَرُ «غدَتْ»، و«مِن» لابْتِداءِ الغايةِ.

و«الغُرْبَة» مأخوذَةٌ من خبَرِ مُسْلِم: (بدَأَ الإِسْلامُ غريباً)[2]، أي ظهَرَ بينَ قومٍ لا يقومونَ بِهِ، فهو مقْطوعُ الرَّحِمِ، حتى قامَ بِهِ الصَّحابَةُ رضِيَ اللهُ تعالى عنْهُم، فوصَلوا رحِمَه.

١٢٦- مَكْفُـــــــولةً أبداً مِنهُمْ بِخَيرِ أَبٍ   وخيرِ بَعْلٍ، فلَمْ تَيْتَمْ ولَمْ تَئِـــــم

مكْفولَةً خبَرٌ ثانٍ لـ «غدَتْ» أو حالٌ من فاعِلِهِ، أي محْفوظَةً **أبْداً منْهُم** أي من الكُفَّارِ، **بخيرِ أبٍ وخيرِ بعْلٍ** أي زوجٍ، وهو النبيُّ صلى الله عليهِ وسلَّم[3]، **فلَمْ تيتَمْ** أي المِلَّةُ من جِهَةِ الأبِ، **ولَمْ تئِمِ** من جِهَةِ البَعْلِ.

والنَّبيُّ صلى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ أشْفَقُ على أُمَّتِهِ من الأبِ على أولادِهِ، وأقومُ بمَصالِحِهم من البَعْلِ على زوجاتِهِ.

---

(١) في البيت السابق.

(٢) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان أن الإسلام بدأ غريبا وسيعود غريبا.

(٣) وذلك مأخوذ من قوله تعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُۥٓ أُمَّهَـٰتُهُمْ﴾ [سورة الأحزاب - من الآية ٦]، وقوله صلى الله عليه وسلم فيما رواه البخاري في صحيحه، كتاب الفرائض، بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه: (أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم فمن مات وعليه دين ولم يترك وفاء فعلينا قضاؤه ومن ترك مالا فلورثته).

وباءُ «بِخيرٍ» للإلْصاقِ، و«تيتَمْ» -بفَتْحِ الفوقيةِ- مُضارِعِ «يتِمَ» -بكسرِها- يُقالُ «يتِمَ الولدُ ييتَمُ» إذا ماتَ أبوهُ وهو صغيرٌ، و«تئِم» مضارِعُ «آمَتْ»، يُقالُ: «آمَتَ المَرأَةُ تيئَمُ» -كباعَتْ تبيعُ- إذا خلَتْ مِن زوجِها، ومِنْهُ: ﴿وَأَنْكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنْكُمْ﴾[1]، وجُمْلَتا «فلم تيتَمْ، ولَمْ تئِمِ» مَعْطوفَتانِ على جُمْلَةِ «وهي بِهِم».

١٢٧- هُمُ الجِبالُ فسَلْ عنْهُمْ مُصَـادِمَهُمْ   مـــاذا رأى مِنْهُمُ في كُلِّ مُصْطَدَمِ

هُمُ أي الصَّحابَةُ رضي الله تعالى عنهم **الجِبالُ**، أي كالجِبالِ في الصَّلابَةِ والصَبْرِ في الحَرْبِ. والجُمْلَة جوابُ ما يُقالُ: مَنْ هؤلاءِ الذينَ صارتْ بِهِم المِلَّةُ إلى هذهِ الحالَةِ؟، فيُقالُ: هُمُ الجِبالُ، **فسَلْ عنْهُمْ مُصادِمَهُمْ** في الحَرْبِ:

ماذا -بدَلُ اشْتِمالٍ من ضميرِ «عنْهُم» وهو اسْتِفْهامٌ فهو مُفْرَدٌ، أو «ما» اسْتِفْهاميةٌ و«ذا» موصولٌ، فهو جُمْلَةٌ- **رأى مِنْهُمْ** -بالضَم والإشْباعِ- من الشِّدَةِ **في كُلِّ مُصْطَدَمِ**، أي مكانِ اصْطِدامٍ في الحَرْبِ، فإِنَّهُ -أعْني مُصادِمَهُم- يُخْبِرُكَ بِهِ ولا يسَعُهُ كتْمُهُ.

و«المُصادَمَةُ» اصْطِكاكُ الصَّفينِ، و«مِن» و«في» مُتَعلِّقانِ بـ «رأى»، و«مِن» لابْتِداءِ الغايةِ، وجُملةُ «فسل» معطوفةٌ على جُملةِ «هُمُ الجِبالُ» وهو من عطْفِ الإنشاءِ على الإخبارِ.

(١) سورة النور - من الآية ٣٢

١٢٨- وسَلْ حُنَيْناً، وسَلْ بَدْراً، وسَلْ أُحُـداً   فُصُولَ حتْفٍ لهُمْ أدْهَى مِنَ الوَخَمِ

وسَلْ حُنَيْناً، هو وادٍ بينَ مكّةَ والطائفِ، **وسَلْ بدْراً**، هو موضعٌ ما بينَ مكةَ والمَدينَةِ، **وسَلْ أُحُداً**، هو جبلٌ بقُرْبِ المَدينَةِ، أي اسْأَلْ أهلَ هذهِ الأمْكنَةِ[١].

فُصُولَ حتْف -بصادٍ وحاءٍ مُهْمَلَتين وفوقيةٍ- أي أنواعَ هَلاكٍ، والمُضافُ بدَلٌ مِن «حُنينا» و«بدْراً» و«أُحُداً»، أو مُبْتَدَأٌ خبَرُهُ محْذوفٌ، أي ففي الأمْكنَةِ الثلاثةِ أنواعُ هلاكٍ **لهَم** أي للكفَّارِ، **أدْهَى مِنَ الوخَمِ**، أي أشدَّ إصابةٍ من الوباءِ، انْصَبَّتْ عليهِم مِن قبَلِ الصَّحابةِ رضي الله تعالى عنهم. و«لهُم» و«أدهى» صِفتانِ لـ «حَتْفٍ».

١٢٩- المُصْدِرِي البِيضِ حُمْراً بعْدَما وَرَدَتْ   مِن العِدَا كُلَّ مُسْوَدٍّ مِنْ اللِّمَـــم

المُصْدري -بضَم الميم- جمْعُ سلامَةٍ لـ «مُصْدرٍ» اسْمُ فاعلٍ من «أصْدَرَ»، يُقالُ: «أصدرَ وصدَرَ عن الماءِ» أي رجَعَ[٢]، وأصْدَرَ غيرَهُ أي رجَعَهُ، وهو منْصوبٌ بإضْمارِ «أمْدَح» أي الصَّحابَةَ، **البيضِ** أي السُّيوفِ المَصْقولَةِ، وهو مجْرورٌ بإضافَةِ المَصْدَرِ إليه، ويجوزُ نصْبُهُ كما قُرِئَ به في قوله: ﴿وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَاةَ﴾[٣]، وحُذِفَتْ النونُ عليه تخْفيفاً[٤]، وعلى الأولِ للإضافَةِ، **حُمْراً** من الدِّماءِ **بعْدَ ما ورَدَتْ** أي البيضُ، **من العدَا** أي مِن الكُفَّارِ، مُتَعلِّقٌ بـ «ورَدَتْ»، أو حالٌ من قولِهِ **كُلَّ مُسْودٍّ** كائنٍ **مِن اللَّمَمِ**، جمْعُ «لِمَةٍ» وهو الشَّعْرُ المُجاورُ شحْمَةَ

(١) على غرار قوله تعالى: ﴿وَسْئَلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾ [سورة يوسف - من الآية ٨٢].
(٢) ومنه قوله تعالى: ﴿قالتا لا نسقي حتى يُصدِرَ الرِّعاءُ﴾ [سورة القصص - من الآية ٢٣].
(٣) سورة النساء - من الآية ١٦٢
(٤) فقال «المصدري البيض» ولم يقل «المصدرين البيض».

الأُذُنِ، و«مِن» فيه زائِدَةٌ، إذِ المَعْنى على الإضافَةِ، و«حُمْراً» حالٌ من «البيضِ»، و«ما» مصْدريةٌ، و«مِن» الأولى لابْتِداءِ الغايةِ، و«كلّ» مفعول «وَرَدَتْ».

١٣٠- والكاتِبينَ بِسُمْرِ الخَطِّ، مـــا تَرَكَتْ   أقلَامُهُمْ حَرْفَ جِسْمٍ غَيْرَ مُنْعَجِـمِ

والكاتبينَ -عطْفٌ على «المُصْدِرِي»- أي الطاعنين **بِسُمْرِ الخَطِّ** وهي الرِّماحُ، جمْعُ «أسْمَرٍ»، و«الخَطّ» شجَرُها، وقيلَ موضِعٌ باليمامَةِ تُجْلَبُ إليهِ الرِّماحُ من الهِنْدِ، وعليهِ الجوهَري[1].

ما تركَتْ أقلامُهُمْ أي أسِنَّةُ رِماحِهِم **حرْفَ جِسْمٍ** من الكُفَّارِ، أي طرَفَهُ **غيرَ منْعَجِمٍ**، أي بِلا طعْنٍ بل طعَنْتُهُ، يُقالُ «أعْجَمْتُ الكتابَ» إذا نقَطْتُهُ، ومعْناهُ أزَلْتُ عُجْمَتَهُ، و«العَجَمُ» النَّقْطُ[2]، وباءُ «بِسُمْرٍ» للاسْتِعانَةِ، و«ما» نافيةٌ، و«غيرَ» صِفَةٌ لـ «حرْفٍ» أو حالٌ مِنْهُ، وجُمْلَةُ «ما تركَتْ» حالٌ من «سُمَرٍ».

١٣١- شاكِي السِّلَاحِ لَهُمْ سِيمَـــا تُمَيِّزُهُمْ   والوَرْدُ يَمْتازُ بِالسِّيمـــا مِنَ السَّلَمِ

شاكِي السِّلاحِ أي تامِّيهِ، وقيلَ حادِّيهِ مِنَ «الشَّوكَةِ» أي الحِدَّةِ، وتَرْكيبُهُ كتَرْكيبِ «المُصْدِرِي البيضِ»، فيأتي فيهِ ما مرَّ، ثُمَّ **لهُمْ سيما** أي علامَةٌ **تُمَيِّزُهُمْ**

---

(١) هو إسماعيل بن حماد، أبو نصر الجوهري (٠٠-٣٩٣ هـ)، من أئمة اللغة، اشتهر بمعجمه «الصحاح» أو «صحاح اللغة وتاج العربية».

(٢) يقول الإمام الباجوري في شرحه: وفي هذا البيت لطائف، منها تشبيه الصحابة بالكتبة، وأسنة رماحهم بالأقلام، وذلك دليل على غاية إحكامهم للطعن بها، حتى إنها في أيديهم كالأقلام في أيدي الكتبة، وليس عليهم كبير مشقة في التصرف بها، ومنها الإشارة إلى أنهم لا يطعنون طعنة إلا في محلها، كما لا تنقط الكتبة نقطة إلا في محلها، ومنها الإشارة إلى أنهم أعجموا حروف أجسام الكفار، ليتميزوا من المسلمين.

عن غيرهم(١)، **والوَرْدُ يمْتازُ بالسِّيما مِنَ السَّلَم**، وهو شَجَرٌ يُشْبِهُ شجَرَ الوَرْدِ، ويمْتازُ الورَدُ عنْهُ، أي عن زهْرِهِ، بِحُسْنِ الخِلْقَةِ وبَهاءِ المَنْظَرِ وطيبِ الرائِحَةِ.

وأَصْلُ «شاكّي» على القولِ بأنَّهُ من الشَّوكَةِ «شائِكٌ»، بهَمْزَةٍ مقْلوبَةٍ عن واوٍ فنقلت مكانَ لامِهِ وبالعَكْسِ، ثُمَّ قُلِبَتْ ياء لتطرُّفِها بعْدَ كسْرَةٍ، فسَكَنَتْ لِثقَلِ الحَركَةِ عليها، فالْتَقَى ساكِنانِ: الياءُ والتنوينُ، فحُذِفَتْ لالتقاءِ الساكِنَيْن، كما في «قاضٍ». و«لهم» خبرُ «سيما»، والجُملةُ خبرُ «شاكّي»، والباءُ لِلسَّببيةِ، و«مِن» للفصلِ، نحو ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾(٢).

١٣٢- تُهْدي إليكَ رِيـــاحُ النَّصْرِ نشْرَهُمُ فتَحْسَبُ الزَّهْرَ في الأكْمامِ كُلَّ كَمي

تُهْدي -بضَمِّ التاء- **إليكَ رياحُ النَّصْرِ** أي التَّأييدِ، **نشْرَهُمُ** -بالضَم والإشْباع- أي خبَرَهُم العَجيبَ الشَّأْنِ. وأَصْلُ النَّشْرِ الرائِحَةُ الطَّيبَةُ، وإضافَةُ الرياحِ من إضافَةِ الأعمِّ إلى الأخصِّ -وياؤُها مُنْقَلِبَةٌ عن واوٍ لِكَسْرةِ ما قبْلَها، كما في مُفْرَدِها وهو الريحُ- وجُمْلَةُ «تُهدي» مُسْتَأنَفَةٌ، وعطَفَ عليها: **فتَحْسَبُ** أنْتَ، أي تظُنُّ **الزَّهْرَ في الأكْمامِ** جمْعُ «كِمٍّ» -بكَسْرِ الكافِ- وهو غُلافُهُ، **كُلَّ كَميٍّ** أي شُجاعٍ مِنْهُم في سلاحِهِ، مِن «كمى جسَدَهُ بالسِّلاحِ» سترَهُ بِهِ، وهذا مفْعولٌ أولٌ لـ «تَحْسَبُ»، وما قبْلَهُ الثاني، و«في الأكْمامِ» حالٌ مِن «الزَّهْرِ».

والزَّهْرُ في أكْمامِهِ أحْسَنُ منْظَراً، وأَطْيبُ رائِحَةً منْهُ خارِجَ الأكْمامِ، وأصْلُ «كمي» كميي بتَشْديدِ الياءِ، بوزْنِ فعيل، حُذِفَتْ الياءُ السّاكِنَةُ وسُكِّنَتْ المُتَحْرِكَةُ للوقْفِ.

---

(١) مأخوذ من قوله تعالى في وصف المؤمنين ﴿سيماهُم في وجوهِهِم﴾ [سورة الفتح - من الآية ٢٩].

(٢) سورة الأنفال - من الآية ٣٧

١٣٣- كأنَّهُمْ في ظُهُورِ الخَيْلِ نَبْتُ رُبَـــاً   مِنْ شِدَّةِ الحَزْمِ لا مِنْ شَدَّةِ الحُـزُمِ

كأنَّهُمْ حالَةَ كونِهِم **في ظُهُورِ الخيلِ نبْتُ رُباً**، جمْعُ «ربوةٍ» -مُثلَّثُ الراءِ- وهي ما ارْتَفعَ من الأرْضِ، ونَبْتُها أثْبَتُ في الأرْضِ من نَبْتِ غيرِها، لطولِ عُروقِهِ حتى تصِلَ إلى الماءِ، بِخلافِ نبْتِ غيرِها، فهُمْ في ظُهورِ الخيلِ أثْبَتُ من غيرِهِم بكَثيرٍ، **مِن** أجْلِ **شِدَّةِ الحَزْمِ** -بكَسرِ الشينِ وفتْحِ الحاءِ وسُكونِ الزاي- أي قوةِ الثَّباتِ، **لا من شَدَّةِ الحُزُمِ** -بفَتْحِ الشينِ وضَمِّ الحاءِ والزاي- **جمْعُ** «حِزامٍ» وهو ما يُشَدُّ بِهِ السَّرْجُ أو غيرُهُ على ظَهْرِ الدابَّةِ.

١٣٤- طـارَتْ قُلوبُ العِدَا مِنْ بَأْسِهِمْ فَرَقاً   فَما تُفَرِّقُ بَيْنَ البَهْمِ والبُهَـــــم

طارَتْ قُلوبُ العدا -جُمْلَةٌ مُسْتَأْنَفَةٌ- أي اضْطَرَبَتْ **من بأسِهِمْ**، أي مِن أجْلِ شِدَّتِهِم في الحَرْبِ، **فَرَقاً** -بفَتْحِ الفاءِ والراءِ- أي فَزَعاً، وهو مفْعولٌ لهُ أو تمييزٌ من نسْبَةِ الطيرانِ إلى القلوبِ، **فما تُفَرِّقُ** -بِضَمِ التاءِ وفَتْحِ الفاءِ وكَسْرِ الراءِ المُشَدَّدَةِ- أي القُلوبُ **بينَ البَهْمِ** -بِفَتْحِ الباءِ وسُكونِ الهاءِ- وهي السِّخالُ[1]، جمْعُ «بَهْمَةٍ»، **والبُهَمِ** -بِضَمِّ الباءِ وفَتْحِ الهاءِ- وهُمْ الشُجْعانِ، **جمْعُ** «بُهْمَةٍ» بِضمِّ الباء وسُكونِ الهاءِ.

والمَعْنى أنَّ الفَزَعَ اشْتَدَّ بالقُلوبِ إلى أنْ صارَتْ لا تُميِّزُ بينَ المَذْكورَيْنِ، و«ما» نافيةٌ، وهي معَ ما بعْدَها معْطوفٌ على «طارَتْ».

(١) السِّخال جمع «سَخْلَة» وهو ولدُ الضأن والمعزِ ساعةَ يولَد.

١٣٥- وَمَنْ تَكُنْ بِرَســــولِ اللهِ نُصْرَتُهُ   إنْ تَلقَهُ الأُسْدُ في آجَامِهـــا تَجِمِ

ومن تكُنْ برَسولِ اللهِ نُصْرَتُهُ[1] على أعْدائِه، **إنْ تلْقَهُ الأُسْدُ** وهي من أعْظَمِ الأعْداءِ **في آجامِها** أي غاباتِها، جمْعُ «أجَمَة»، وهي فيها أجرأُ منْها في غيرِها، **تجِم** -بِكَسْرِ الجيمِ- مُضارِعُ «وجَمَ»، أي تَسْكُنُ ولا تَتَحرَّكُ خوفاً منْه[2].

والشَّرْطُ الثاني وجوابُهُ جوابُ الأولِ، و«نُصْرتُهُ» اسْم «تكُنْ»، وخَبَرُه «بِرَسولِ اللهِ».

١٣٦- ولَنْ تَرَى مِنْ وَليٍّ غَيْرِ مُنْتَصِـــــرٍ   بِهِ، ولا من عَدُوٍّ غير مُنْقَصِـــــمِ

ولنْ ترى من وليٍّ غيرَ مُنْتَصِرٍ بِهِ على عدوِّه، **ولا** ترى **من عدُوٍّ** لهُ **غيرَ مُنْقَصِمِ** -بالقافِ- أي مُنْكَسِرٍ، بلْ كُلُّ وليٍّ بِهِ مُنْتَصِرٌ، وكُلُّ عدُوٍّ لهُ مُنْكَسِرٌ.

و«منِ» في الموضِعينِ زائِدَةٌ لتَنْصيصِ العُموم، و«غير» كذلكَ بالجَرِّ صِفَةٌ لما قبْلَها على لفْظِهِ، وبِالنَّصْبِ صِفَةٌ لهُ على محْلِهِ، أو حالٌ مِنْهُ وإنْ كانَ نكِرَةً لوقوعِهِ

---

(١) يقول الإمام الباجوري في شرحه: ولا تكون النصرة برسول الله صلى الله عليه وسلم إلا باتباع سنته، وترك ما كان على خلاف شريعته، وذلك هو تقوى الله، والحامل عليها خوف الله، ومن خاف الله خاف منه كل شيء، حتى الأسد في آجامها، فمن حصلت له هذه المرتبة طارت قلوب العدا من بأسه، وسلم من أعدائه.

(٢) يشير بذلك إلى قصة سفينة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم مع الأسد والتي أوردها البزار في مسنده، والبيهقي في دلائل النبوة، والطبراني في المعجم الكبير، والحافظ ابن حجر العسقلاني في المطالب العالية، واللفظ له، بسنده عن محمد بن المنكدر، عن سفينة رضي الله عنه قال: «ركبت البحر في سفينة، فكُسرت بنا فركبت لوحا منها، فطرحني في أجَمة، فيها الأسد، فلم يرعني إلا به، فقلت: يا أبا الحارث، أنا سفينة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: فضربني بمنكبه وطأطأ رأسه، وجعل يغمزني بمنكبه، ثم مشى معي، حتى أقامني على الطريق، ثم ضربني بيده، وهمهم ساعة، فرأيت أنه يودعني». وسفينةُ هذا خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم واسمه «قيس» لكن الرسول سمّاه «سفينة» مُداعبةً له حيث كان يحمل أمتعته -صلى الله عليه وسلم- في السفر.

بعْدَ النَّفي، وباؤُهُ للسَّبَبيةِ، أو للمُصاحَبَةِ لهُ صلى الله عليهِ وسَلَّمَ، كما في حقِّ الصَّحابَةِ رضي الله تعالى عنهم، أو لِسُنَّته كما في حقِّ غيرِهِم.

١٣٧- أَحَلَّ أُمَّتَهُ في حِرْزِ مِلَّتِـــــــهِ كاللَّيثِ حلَّ مَعَ الأشْبــالِ في أَجَمِ

أَحَلَّ أي أنْزَلَ **أُمَّتَهُ في حِرْزِ مِلَّتِهِ**، وهو ما يحْفَظُهُم -باتِّباعِهِم لها- عن نارِ الكُفْرِ، **كاللَّيثِ** أي الأسَدِ، حالَةَ كونِهِ **حلَّ معَ الأشْبالِ**، جمْعُ «شِبْلٍ» وهُمْ أولادُهُ، **في أَجَمٍ** -بفَتْحَتينِ- جمْعُ «أَجَمَة» وهي الغابَةُ، حِفْظاً لها[1] عمَّن يتعرَّضُ لها، والنَّبيُّ صلى الله عليه وسلم كالأبِ لأُمَّتِهِ في شَفَقَتِهِ عليهِم، و«كاللَّيثِ» حالٌ من فاعِلِ «أَحَلَّ».

١٣٨- كَمْ جَدَّلَتْ كلِمــاتُ اللهِ مِنْ جَدِلٍ فيهِ، وكَمْ خَصَّمَ البُرهَـانُ مِنْ خَصِمِ

كَمْ جدَّلَتْ -بتَشْديدِ الدَّالِ- أي قطَعَتْ **كلماتُ اللهِ** وهي القُرآنُ، **من جدِلٍ** -بكَسْرِ الدالِ- أي شديدِ الجدالِ **فيهِ**، أي في النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، **وكَمْ خصَّمَ**[2] -بتَشْديدِ الصَّادِ- **البُرهانُ** أي الدليلُ القاطِعُ فيهِ، **من خصِمٍ** -بكَسْرِ الصادِ- أي شديدِ الخِصامِ.

و«كَمْ» في الموضِعينِ خبَريةٌ بمَعْنى كثيراً، والمَجْرورُ بـ «مِنْ» في الموضِعينِ تمييزٌ لها.

---

(١) أي لهذه الأشبال.

(٢) صيغة مبالغة من «خصَمَ» بمعنى غلبه في الخصام.

١٣٩- كَفَــــاكَ بِالعِلْمِ فِي الأُمِّي مُعْجِزَةً   فِي الجاهِلِيَّةِ والتأديبِ في اليُتُـــمِ

كفاكَ أيها الطالبُ لمُعْجِزَةٍ **بِالعِلْمِ في الأُمِّي** -وهو مَن لمْ يكْتُبْ ولا تعلَّمَ مِن مُعَلِّمٍ- **مُعْجِزَةً**، تمييزٌ للنِّسْبَةِ في «كفى» ويتَعَلَّقُ بها، أو يكفي قولُهُ **في الجَاهليةِ** وهي زمانٌ لا عِلْمَ فيهِ، **والتأديبِ** -بالجرِّ- عُطِفَ على «العِلْمِ»، **في اليُتُمِ** -بِضمِ التاءِ لُغَةً في سُكونِها- مصْدَر «يتَمَ».

وتقَدَمَ أَنَّ اليتيمَ مَن ماتَ أبوهُ، وهو صغيرٌ، والنبيُّ صلى اللهُ عليهِ وسَلَّم ماتَ أبوهُ قبْلَ وِلادَتِهِ، وقيلَ بعْدَها، وترَبَّى في كفالَةِ عمِّهِ أبي طالِبٍ مُؤدَّباً، وقدْ قالَ صلى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ: (إنَّ اللهَ أدَّبَني فأَحْسَنَ تأْديبي)[١].

و«بِالعِلْمِ» فاعِلُ «كفى» بزيادَةِ الباءِ، وزيادَتُها في فاعِلِ «كفى» كثيرٌ، و«في الأُمِّي» مُتَعَلِّقٌ بـ «العِلْمِ» أو حالٌ منْهُ أو صِفَةٌ لهُ، ويُقالُ بمِثْلِ ذلكَ «في اليُتُمِ» معَ «التَّأْديبِ»، و«التَّأديبُ» مصْدَرٌ من المَبْني للمَفْعولِ، ليكونَ صِفَةً للنَّبي، وتَرَكَ «مُعْجِزَةً» بعْدَ قولِهِ «اليُتُمِ» للعِلْمِ بها ممَّا قبْلُ، وأراد بِها[٢] مُجَرَّدَ الأمْرِ الخارِقِ للعادَةِ، وإنْ اعْتبروا فيها معَ ذلِكَ قرنَه بالتَّحَدي، أي دعوى الرِّسالَةِ معَ عدَمِ المُعارَضَةِ[٣] مِن المُرْسَلِ إليهِمْ.

*****

---

(١) رواه ابن السمعاني في «أدب الإملاء».

(٢) أي بالمعجزة، وقد عرّفها الإمام الباجوري في شرحه على جوهرة التوحيد بقوله: واعلم أن المعجزة لغة مأخوذة من العجز، وهو ضد القدرة، وعُرفاً: أمر خارق للعادة، مقرون بالتحدي الذي هو دعوى الرسالة أو النبوة مع عدم المعارضة.

(٣) المقصود بالمُعارَضة هنا: الإتيان بمثل ما جاء به الرسول.

الفصل التاسع: في التوسل بالنبيّ صلى الله عليه وسلّم

١٤٠- خدَمْتُهُ بِمَديحٍ أسْتَقِيلُ بِـــــهِ ذُنُوبَ عُمْرٍ مَضَى في الشِّعْرِ والخِدَمِ

خدمْتُهُ أي مدَحْتُهُ صلى الله عليه وسلم **بمَديحٍ**، وهو هذا النَّظْمُ، وقَدْ أخْلَصْتُ فيهِ النِّيَّةَ، **أسْتَقيلُ** أي أطْلُبُ من اللهِ تعالى أنْ يُقيلَني[1] **بهِ** أي بِسَبَبِهِ، **ذُنوبَ عُمْرٍ مضى في الشِّعْرِ والخِدَمِ**[2] لأبْناءِ الدُّنيا بِمَدْحٍ وغيرِهِ.

وجُمْلَةُ «أسْتَقيلُ» حالٌ من تاءِ «خدَمْتُهُ»، و«ذُنوبَ» مفعولُ «أسْتَقيلُ».

١٤١- إذْ قلَّدَاني مَـــــا تُخْشَى عواقبُهُ كأنَّني بِهِمَـــــا هَدْيٌ مِنَ النَّعَمِ

إذْ تعْليليةٌ، **قلَّداني** أي الشِّعْرُ والخِدَمُ **ما تُخشى عواقِبُهُ** وهو الآثامُ، وعواقِبُهُ أنواعُ العَذابِ، أي جعَلاهُ كالقِلادَةِ في عُنُقي، **كأنَّني بهما** أي بِسَبَبِهما **هديٌ** كائنٌ **من النَّعَم**، وهي الإبِلُ والبَقَرُ والغَنَمُ، ومِن شأنِ الهَدْيِ أنْ يُقَلَّدَ بِتَعْليقِ شيءٍ في عُنُقِهِ، ليُعْلَمَ أنَّهُ هديٌ، فلا يُتَعَرَّضُ لهُ، ثُمَّ يُنْحَر.

و«بهما» حالٌ مِن «هَدي» أو من اسْمِ «كأنَّ»، والعامِلُ التَّشْبيهُ، و«مِن» للتَّبْعيضِ.

(١) أي يصفح ويتجاوز عني. يُقالُ «أقال الله عثرته» صفح عنه وتجاوز.
(٢) الخِدَم بكسر الخاء جمع «خِدمة» من «خَدَم يَخْدِم» أي قام بحاجته وكان تحت تصرفه.

١٤٢- أَطَعْتُ غَيَّ الصِّبا في الحَالَتَيْنِ، ومـا حَصَلْتُ إلا علَى الآثـــام والنَّدَم

أطَعْتُ غيَّ الصِّبا[1] **في الحالتيْنِ**، أي حالتَيْ الشِّعْرِ والخِدَم، **وما حصَلْتُ إلا على الآثامِ** من جِهَتِهِما، **والنَّدَمِ** عليهِما، الذي هو توبَةٌ.

وجُمْلَةُ «أطَعْتُ» مُفَسِّرَةٌ لـ «ذُنوب»[2] أو مُسْتَأْنَفَةٌ، وجُمْلَةُ «ما حصَلْتُ» معْطوفَةٌ على جُمْلَةِ «أطَعْتُ».

١٤٣- فَيَا خَسَارَةَ نَفْسٍ في تِجارَتِهـــــا لَمْ تَشْتَرِ الدِّينَ بِالدُّنيـــا ولَمْ تَسُم

فيا خسارةَ نفْسٍ، فيه معْنى التَّعَجُّبِ[3]، أي ما أَخْسَرَها **في تِجارَتِها**، وهي أنَّها **لمْ تَشْتَرِ الدِّينَ بالدُّنيا** أي لمْ تأخُذْهُ بدَلَها، **ولم تسُم**[4] أي لمْ تتَعَرَّضْ لأَخْذِه، بلْ أخَذَتِ الدُّنيا وتركَتِ الدِّينَ الذي تنْجو بِهِ في الآخِرَةِ، فهي خاسِرةٌ في ذلِكَ خُسْراناً بيناً، وكأنَّهُ عنى نفْسَهُ باتِّباعِهِ الشِّعْرَ والخِدَمَ، ونداءُ الخَسارَةِ مجازٌ كما لوَّحْتُ لهُ، أي هذا أوانُكِ فاحْضُري.

و «في تجارَتِها» مُتَعَلِّقٌ بـ «خسارةِ»، وجُمْلَةُ «لم تشْتَرِ» صِفَةٌ لـ «نفْسٍ»، والباءُ للعوضِ كما أشَرْتُ إليهِ، نحوَ «اشْتَريتُ الفرَسَ بألْفٍ».

---

(١) الغيُّ ضدُّ الهُدى، وأضيف للصبا لأن الصبا يدعو إليه، فهو زمن الجهل والبطالة.

(٢) في البيت قبل السابق، رقم ١٤٠.

(٣) والعرب من عادتهم أنهم إذا استعظموا شيئا وتعجبوا منه، نادَوْه ليحضر.

(٤) من «سام السلعة يسومها سوما» تعرّض لشرائها.

١٤٤- وَمَنْ يَبِعْ عـــاجِلاً مِنْهُ بآجِلة   يَبِنْ لهُ الغَبْنُ في بيعٍ وَفي سَلَـــم

ومَن يبِعْ عاجِلاً منْهُ أي من الدِّين، بأَنْ يُعْطِيَهُ بِدُنيا **آجِلَة** قد تحْصُلُ لهُ، **يبِنْ** أي يظْهَرْ **لهُ الغَبْنُ في بيعٍ وفي سلَمٍ**، حيثُ أَعْطى مُعجَّلاً بِمؤجَّلٍ قد لا يحْصُلُ لهُ[1].

وفي نُسْخَة بدلُ الشَّطْرِ الأولِ «ومن يبِعْ آجِلاً منْهُ بِعاجِلِه»، أي ثواباً لهُ في الآخِرَةِ المُحَقَّقَةِ الباقيةِ، بِشيءٍ يأْخُذُهُ من الدُّنيا الذاهِبَةِ[2].

١٤٥- إنْ آتِ ذَنْباً فَمَـــا عَهْدِي بِمُنْتَقِضٍ   مِنَ النَّبيِّ، ولا حَبْلي بِمُنْصَـــرِمِ

إن آتِ ذنْباً، بعْدَ ما مرَّ من توبَتي بِالنَّدَم على الشِّعْرِ والخِدَم، بِأَنْ عُدْتُ إليهِما، **فما عهْدِي** وهو عهْدُ الإيمانِ **بِمُنْتَقِضٍ من النَّبي** بذلك، لأَنَّ نقضَ التَّوبةِ بِارْتِكابِ الذَّنْبِ لا ينْقُضُ عهْدَ الإيمانِ[3]، **ولا حبْلي** أي وَصْلي بِالنَّبي **بِمُنْصَرِمٍ** أي مُنْقَطِعٍ بِذلك أيضاً، وإنْ كانَ مِن شأنِ الذَّنْبِ قطْعُ المودَّةِ.

و«آتِ» أصْلُهُ «أأْتِ» مُضارِعُ «أتى» أي جاءَ، فقُلِبَتْ همْزَتُهُ الثانيةُ ألفاً، وجُزِمَ بإنْ الشَّرْطيةِ وعلامَةُ جزْمِه حذْفُ الياءِ، والباءُ في الموضِعيْن زائدة.

---

(١) يقول الباجوري في شرحه: وعلى هذا المثل المشهور: «برة عاجلة خير من درة آجلة»، ولما كان الثواب المذكور محققا ولا بد، أطلق عليه عاجل لأنه كالحاصل بالفعل، ولما كان الشيء الذي يأخذه من الدنيا غير محقق أطلق عليه آجل.

(٢) يقول ابن العماد الأقفهسي في شرحه: قال أهل العلم: لو كانت الآخرة خزفا يبقى، والدنيا جوهرا يفنى، لوجب على العاقل أن يختار الخزف الباقي على الجوهر الفاني، فما ظنك بمن يأخذ خزفا يفنى ويترك جوهرا يبقى.

(٣) هذا هو مذهب أهل السنة. يقول الإمام اللقاني في جوهرة التوحيد:

ثم الذنوب عندنا قسمـــان   صغيرة، كبيرة، فالثـــاني
منه المتابُ واجب في الحال   ولا انتقاضَ إن يعُدْ للحـــال

١٤٦- فإنَّ لي ذِمَّةً منْهُ بتَسْمِيَتـــــــي مُحَمَّداً، وَهْوَ أوْفَ الخَلْقِ بِالذِّمَـم

فإنَّ لي ذِمَّةً أي جِواراً **منْهُ**، أي مِن النَّبي صلى الله عليه وسلم، **بتَسْميتي مُحَمَّداً** أي بِسَبَبِها[1]، وارْتِكابُ الذَّنْب لا يقْطَعُ التَّسْميةَ، **وهو أوْفى الخَلْقِ بالذِّمَم** فيقومُ بِحَقِّها، بأنْ يشْفَعَ في أهْلِها. و«مِن» للابْتِداء.

١٤٧- إنْ لَمْ يكُنْ في مَعَـــادِي آخذاً بيَدِي فضْلاً، وإلا فقُلْ يَـــــا زَلَّةَ القَدَم

إنْ لمْ يكُنْ أي النبيُّ صلى الله عليه وسلَّم، **في معادي** أي عَوْدِي في الآخرةِ للجَزاءِ، **آخذاً بيدي** يشْفَعُ فيّ **فضْلاً** مِنْهُ، **وإلّا**، أي وإنْ لمْ يكُنْ في معادي كذلك، فهو بمَعْنى الشَّرْطِ الأولِ تأكيداً لهُ، وجوابُهُما قولُهُ **فقُلْ** -خِطابٌ لِمَنْ جرَّدَهُ من نفْسِهِ- لي: **يا زلَّةَ القدَمِ**، يُكنِّي بِهذا عن سوءِ الحالِ والوقوعِ في شِدَّةٍ.

١٤٨- حاشَـــاهُ أَنْ يَحْرِمَ الرَّاجِي مَكَارِمَهُ أو يَرْجِعَ الجَـــارُ مِنْهُ غيرَ مُحْتَرَم

حاشاهُ اسْمُ مُضافٍ بمَعْنى التَّنزيهِ، أي أُنَزِّهُهُ تنْزيهاً عن **أنْ يحْرِمَ** -بِفَتْحِ الياءِ، أو ضمِّها مع كسْرِ الراءِ- أي يمْنَعَ **الرَّاجي** لهُ **مكارِمَهُ**، جمْعُ «مكْرُمَة»، بِمَعْنى

---

(١) وليس معنى تفاؤل الإمام البوصيري واستبشاره باسمه الذي وافق اسم رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه تارك للعمل، فقد كان عالما عاملا وشيخا فاضلا وإماما مُجدا مجتهدا، ولكنه كان لا يركن إلى عمله واجتهاده، والصالحون دائما يبالغون في الطاعات ثم يتشبثون بغير أعمالهم، وإنما بحسن الظن في الله ورسوله.

يقول الإمام الباجوري: ووجه ذلك أن اختياره التسمية باسمه صلى الله عليه وسلم دليل على محبته فيه، فإنه لا يتسمى بالاسم إلا من أحب مسماه، ... وفي كلام المصنف ترغيب في التسمية باسمه صلى الله عليه وسلم.

شفاعَتِه، **أو** عن أنْ **يَرجِعَ الجارُ**، أي الدَّاخِلُ في جوارِه، **منْهُ** أي مِن النبي صلى الله عليه وسلم **غيرَ مُحْتَرَم**، بل يرجِعُ مُحْتَرَماً بِشَفاعَتِه فيه، أي وأنا راجٍ لَهُ، داخِلٌ في جوارِه.

و«الراجي» مفْعولُ «يَحْرِم»، وسَكَّنَ ياؤَهُ على لُغَةٍ، ففاعِلُ «يَحْرِم» النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم، وإنْ قُرِئَ «يُحْرَم» بالبناءِ لِلمَفْعولِ، فالراجي مرْفوعٌ نائباً عن الفاعِلِ وهو اللهُ تعالى، و«منْهُ» مُتَعَلِّقٌ بـ «يَرجِع» أو «يَحْرِم»، و«مِن» للابْتِداءِ، و«غيرَ» حالٌ من «الجار».

١٤٩- ومُنْذُ أَلْزَمْتُ أفكَـــــاري مَدائِحَهُ وجَدْتُهُ لِخَلاصي خَيْرَ مُلْتَـــــــزِمِ

ومُنْذُ أَلْزَمْتُ أفكاري، جمْعُ «فِكْرٍ» وهو حركَةُ النَّفْسِ في المَعْقولاتِ، **مدائِحَهُ** جمْعُ «مديح» وهو كالمَدْحِ، الثَّناءُ الحَسَنُ، **وجَدْتُهُ** أي النبيَّ صلى الله عليه وسلم، **لِخَلاصي** مِمَّا ساءَني مِن مرَضٍ وغيرِهِ **خيرَ مُلْتَزِم** -بِكَسْرِ الزاي- أي بِأَنْ وفَّى بِخَلاصي على أحْسَنِ الوجوهِ.

و«مُنْذُ» مُتَعَلِّقٌ بـ «وجَدْتُ»، و«أفكاري» مفْعولٌ أولٌ لـ «أَلْزَمْتُ»، و«مدائِحَهُ» مفْعولُهُ الثّاني.

١٥٠- وَلَنْ يَفُــوتَ الغِنَى مِنْهُ يَداً تَرِبَتْ إِنَّ الحَيَا يُنبِتُ الأَزْهَــارَ في الأَكَمِ

ولن يفوتَ الغِنَى -جُمْلَةٌ مُسْتَأْنَفَةٌ- **منْهُ يداً ترِبَتْ** أي افْتَقَرَتْ، لِعُمومِ الغِنَى مِنْهُ لِجَميعِ الأيدي المُفْتَقِرةِ، ومِنْها يدِيَ.

إنَّ الحيا أي المَطَرُ، **يُنْبِتُ الأزهارَ في الأَكَمِ**، جمْعُ «أَكَمَة» وهي الرَّبوةُ، بِعُمومِ المَطَرِ لها، معَ أنَّها لِعُلوِّها مظَنَّةُ عدَمِ النَباتِ، لِعَدَمِ ثباتِ الماءِ عليها، فكَما لَمْ يفُتْها معَ ذلِك النَباتُ، لَمْ يفُتِ الغني من النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم يداً لا يُظَنُّ غِناها. و«مِنْهُ» صِفَةٌ لِلغِنى أو حالٌ مِنْهُ، و«مِن» لابْتِداءِ الغايةِ، و«في الأَكَمِ» مُتَعَلِّقٌ بـ «يُنْبِت».

١٥١- وَلَمْ أُرِدْ زَهْرَةَ الدُّنْيَـا التي اقْتَطَفَتْ يَدا زُهَيْرٍ بِمَـــا أثْنى عَلى هَرِمِ

ولَمْ أُرِدْ بِغِنى الأيدي مِنْهُ **زَهْرَةَ الدُّنيا**، أي مُسْتَلَذَّاتِها مِن المالِ وغيرِهِ، **التي اقْتَطَفَتْـ**ـها، أي أخَذَتْها، وفي نُسْخَةٍ بدَلُ «اقْتَطَفَتْ» «اقْتَطَعَتْ»، **يدا زُهير** الشاعِرِ الجاهِلي[1] **بما أثْنى على هرِمِ** -بِكَسْرِ الراءِ- أَحَدِ أجوادِ العَرَبِ[2]، وقَدْ وصَلَهُ بِصِلاتٍ كثيرَةٍ خارِجَةٍ عن العاداتِ، وإنَّما أرَدْتُ الغِنى مِنْهُ في الآخِرَةِ بِالشَّفاعَةِ في المُذْنِبينَ.

و«بِما» مُتَعَلِّقٌ بِـ «اقْتَطَفَتْ»، والباءُ لِلسَّبَبِيةِ، و«ما» مصْدريةٌ أو موصولٌ اسْمي.

*****

(١) هو زهير بن أبي سلمى ربيعة بن رياح المزني (٠٠-١٣ ق هـ) حكيم الشعراء في الجاهلية. كان ينظم القصيدة في شهر وينقحها ويهذبها في سنة، فكانت قصائده تسمى الحوليات. أشهر شعره معلقته التي قالها في مدح هرم بن سنان، وقصيدة «بانت سعاد» التي أنشدها بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

(٢) هو هرم بن سنان بن أبي حارثة المري (٠٠-١٥ ق هـ) يضرب به المثل في الجود، وهو ممدوح زهير بن أبي سلمى، اشتهر هو وابن عمه الحارث بن عوف بدخولهما في الإصلاح بين قبيلتي عبس وذبيان، فتحملا ديات القتلى وكانت ثلاثة آلاف بعير، أدَّياها في ثلاث سنين. مات هرم قبل الإسلام ووفدت بنته على عمر بن الخطاب في خلافته، فقال لها: ما الذي أعطى أبوك زهيرا حتى قابله من المديح بما قد سار فيه؟ فقالت: ما أعطى هرمٌ زهيرا قد نُسي! فقال: ولكن ما أعطاكم زهيرٌ لا يُنسى.

الفصل العاشر: في المناجاة

١٥٢- يا أَكْرَمَ الرُّسْلِ مَـــالِي مَنْ أَلُوذُ بِهِ   سِوَاكَ عِنْدَ حُلُولِ الحَـادِثِ العَمِمِ

يا أَكْرَمَ الرُّسْلِ -بإِسْكانِ السينِ لُغَةً في ضمِها- وفي نُسْخَةٍ «يا أَكْرَمَ الخَلْقِ» أي عِنْدَ اللهِ وعِنْدَ غيرِهِ، **مالي مَنْ أَلوذُ بِهِ** -بالذالِ المُعْجَمَةِ- أي أَلْجَأُ إليه **سواكَ عِنْدَ حُلولِ الحادثِ العَمِمِ** -بالعينِ المُهْمَلَةِ، وكَسْرِ الميمِ الأولى- أي الشامِلِ لِلخَلْقِ، وهو هولُ يومِ القيامَةِ[1]. و«سِواكَ» بدَلٌ مِن «مَنْ».

---

(١) يعبر الإمام البوصيري في هذا البيت عن حال الخلق يوم القيامة، كما يشير إلى ذلك حديث الشفاعة. روى البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب كلام الرب عز وجل يوم القيامة مع الأنبياء، بسنده عن معبد بن هلال العنزي قال: اجتمعنا -ناسٌ من أهل البصرة- فذهبنا إلى أنس ابن مالك، وذهبنا معنا بثابت [البناني] إليه يسأله لنا عن حديث الشفاعة، فإذا هو في قصره، فوافقناه يصلي الضحى فاستأذنا، فأذن لنا وهو قاعد على فراشه، فقلنا لثابت: لا تسأله عن شيء أول من حديث الشفاعة، فقال: يا أبا حمزة، هؤلاء إخوانك من أهل البصرة جاءوك يسألونك عن حديث الشفاعة، فقال: حدثنا محمد صلى الله عليه وسلم قال: (إذا كان يوم القيامة ماج الناس بعضهم في بعض، فيأتون آدم فيقولون: اشفع لنا إلى ربك، فيقول: لست لها ولكن عليكم بإبراهيم فإنه خليل الرحمن، فيأتون إبراهيم فيقول: لست لها ولكن عليكم بموسى فإنه كليم الله، فيأتون موسى فيقول: لست لها ولكن عليكم بعيسى فإنه روح الله وكلمته، فيأتون عيسى فيقول: لست لها ولكن عليكم بمحمد صلى الله عليه وسلم، فيأتوني فأقول: أنا لها، فأستأذن على ربي فيؤذن لي، ويلهمني محامد أحمده بها لا تحضرني الآن فأحمده بتلك المحامد وأخر له ساجدا، فيقول: يا محمد ارفع رأسك وقل يسمع لك وسل تعط واشفع تشفع، فأقول: يا رب أمتي أمتي، فيقول: انطلق فأخرج منها من كان في قلبه مثقال شعيرة من إيمان، فأنطلق فأفعل، ثم أعود فأحمده بتلك المحامد ثم أخر له ساجدا، فيقال: يا محمد ارفع رأسك وقل يسمع لك وسل تعط واشفع تشفع، فأقول: يا رب أمتي أمتي، فيقول: انطلق فأخرج منها من كان في قلبه مثقال ذرة أو خردلة من إيمان فأخرجه، فأنطلق فأفعل، ثم أعود فأحمده بتلك المحامد ثم أخر له ساجدا، فيقول: يا محمد ارفع رأسك وقل يسمع لك وسل تعط واشفع تشفع، فأقول: يا رب أمتي أمتي، فيقول: انطلق فأخرج من كان في قلبه أدنى أدنى أدنى مثقال حبة خردل من إيمان فأخرجه من النار، فأنطلق فأفعل)، فلما خرجنا من عند أنس قلت لبعض أصحابنا: لو مررنا بالحسن وهو متوار في منزل أبي خليفة فحدَّثناه بما حدثنا أنس بن مالك، فأتيناه فسلمنا عليه فأذن لنا، فقلنا له: يا أبا سعيد جئناك من عند أخيك أنس بن مالك فلم نر مثل ما حدثنا في الشفاعة، فقال: هيه، فحدثناه بالحديث فانتهى إلى هذا الموضع، فقال: هيه، فقلنا: لم=

١٥٣- وَلَنْ يَضِيقَ رسُـــولَ اللهِ جَاهُكَ بِي ... إذا الكَرِيمُ تحَلَّى بِاسْمِ مُنْتَقِـــــم

ولن يضيقَ يا **رسولَ اللهِ جاهُكَ بي، إذا الكريمُ** وهو اللهُ تعالى، **تحَلَّى**[1] -بحاءٍ مُهْمَلَةٍ- أي اتَّصَفَ **باسْمِ مُنْتَقِمٍ** من المُذْنبينَ وأنا منْهُمْ، فَتجودَ عليَّ بالشَّفاعَةِ. وجوابُ «إذا» عِنْدَ البَصْريينَ مُقَدَّرٌ بعْدَ مدْخولِها، يدُلُّ عليهِ ما قبْلَها، وعِنْدَ الكوفيينَ ما قبْلَها، وفي نُسْخَةٍ بَدلُ «إذا» «إذ» فتكونُ تعليليةً، وهي أولى.

١٥٤- فإِنَّ مِنْ جُودِكَ الدُّنيَا وضَرَّتَهـــــا ... ومِنْ عُلـــومِكَ عِلْمَ اللَّوْحِ والقَلَمِ

فإنَّ من جُودِكَ الذي جادَ اللهُ تعالى بِهِ عليكَ **الدُّنيا وضَرَّتَها** وهي الآخِرَةُ، أي خيريهما، ومن خيرِ الدُّنيا هدايتُهُ النَّاسَ، ومن خيرِ الآخِرَةِ شفاعَتُهُ فيهم.

وإنَّ من عُلومِكَ التي علَّمَها اللهُ لكَ **عِلْمَ اللَّوحِ والقَلَمِ**. يقالُ إنَّ اللهَ أطْلَعَهُ على ما كتَبَ القَلَمُ في اللَّوحِ المَحْفوظِ، وعلى عُلومِ الأولينَ والآخِرينَ[2]، وهذا من جاهِهِ عِنْدَ اللهِ تعالى، والجاهُ القَدْرُ والمَنْزِلَةُ.

=يزد لنا على هذا، فقال: لقد حدثني وهو جميعٌ منذ عشرين سنة فلا أدري أنسيَ أم كره أن تتَّكلوا، قلنا: يا أبا سعيد فحدثنا، فضحك وقال: خلق الإنسان عجولا، ما ذكرتُه إلا وأنا أريد أن أحدثكم، حدثني كما حدثكم به قال: (ثم أعود الرابعة فأحمده بتلك المحامد ثم أخر له ساجدا فيقال: يا محمد ارفع رأسك وقل يسمع وسل تعطه واشفع تشفع، فأقول: يا رب ائذن لي فيمن قال لا إله إلا الله، فيقول: وعزتي وجلالي وكبريائي وعظمتي لأخرجن منها من قال لا إله إلا الله).

(١) وفي نسخة «تجلى»، والإمام البوصيري في هذا البيت يشير إلى جاه رسول الله صلى الله عليه وسلم، ورحمته بجميع أفراد أمته يوم القيامة كما يشير إليه حديث الشفاعة الذي أوردناه آنفا.

(٢) كما هو ثابت في حديث المعراج في الصحيحين وغيرهما: (ثم عرج بي حتى ظهرت لمستوى أسمع فيه صريف الأقلام) أي صوت أقلام الملائكة تكتب من اللوح المحفوظ.

ويقول الإمام الباجوري ضمن شرح البيت: فإن قيل إذا كان علم اللوح والقلم بعض علومه صلى الله عليه وسلم، فما البعض الآخر؟ أجيب بأن البعض الآخر هو ما أخبره الله عنه من أحوال الآخرة، لأن القلم كتب في اللوح ما هو كائن إلى يوم القيامة فقط.



ومما ورَدَ في سُؤالِهِ الشَّفاعَةَ خبَرُ أنَسٍ: سَأَلْتُ النبيَّ صلى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ أنْ يشْفَعَ لي يومَ القيامَةِ، قالَ: أنا فاعِلٌ[1].

وبِما قرَّرتُهُ عُلِمَ أنَّ «مِن عُلومِكَ» معْطوفٌ على «مِن جودِكَ»، وأنَّ «عِلْمَ اللَّوحِ والقَلَمِ» معْطوفٌ على «الدُنيا وضَرَّتَها»، ويجوزُ أنْ يكونَ «مِنْ عُلومِكَ» مُسْتَأْنَفاً فيكونُ خبَراً و «عِلْمُ اللَّوحِ» مُبْتَدأً، وكَرَّرَ «مِنْ» لِئَلا يلْزَمَ العَطْفُ على معْمولي عامِلَيْنِ مُخْتَلِفينِ، إذ لو قالَ: «وعُلومُكَ عِلْمُ اللَّوحِ والقَلَمِ»، لزِمَ عطْفُ مخْفوضٍ على مثْلِهِ، ومَنْصوبٌ على مثْلِهِ، في عامِلَيْنَ مُخْتَلِفَيْنِ.

١٥٥- يـا نَفْسُ لا تَقنَطي مِنْ زَلَّةٍ عَظُمَتْ ... إنَّ الكَبَـــائِرَ في الغُفْرانِ كاللَّمَمِ

يا نفْسُ -بِضَمِ السينِ وبِكَسْرِها- والأَصْلُ يا نفْسي، **لا تقْنَطي** -بِضَمِّ النونِ أو كَسْرِها على لُغَةِ فتْحِها في ماضيهِ، وبِفَتْحِها على لُغَةِ كسْرِها في ماضيهِ- أي لا تيأسي **من** عفْوِ **زلَّةٍ** أي ذنْبٍ، **عظُمَتْ** أي كَبُرَتْ. **إنَّ الكبائرَ في الغُفْرانِ كاللَّمَمِ**، وهو صِغارُ الذُنوبِ، فيجوزُ العَفْوُ عنْها، قالَ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾[2].

و «مِنْ» لِلتَّعْدِيةِ إنْ قُدِّرَ عفوٌ كما سلَكْتُهُ، ولِلتَّعْليلِ إنْ لمْ يُقَدَّرْ، و «في الغُفْرانِ» مُتَعَلِّقٌ بِـ «كاللَّمَمِ».

---

(١) رواه الترمذي وحسنه: سنن الترمذي، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب ماجاء في شأن الصراط، ورواه أيضا الإمام أحمد في مسنده.

(٢) سورة النساء – من الآية ١٤٨

١٥٦- لعَلَّ رَحْمَةَ ربِّي حِينَ يَقْسِمُهـــــا   تَأْتي عَلى حَسَبِ العِصيَانِ في القِسَمِ

لعَلَّ رحْمَةَ ربِّي حينَ يقْسِمُها بينَ الخَلائِقِ، **تأتي على حَسَبِ** أي قدْرِ **العصيانِ**، الكبيرِ والصَّغيرِ، **في القِسَمِ** جمْعُ «قِسْمَةٍ» بمَعْنى قِسْم، و«لعَلَّ» حرْفُ ترَجِّي عمومَ الرَّحْمَةِ لِلكَبائرِ والصَّغائرِ، وفي خبَرِ الصَّحيحين: أنا عِنْدَ ظَنْ عبْدي[1].

و«حينَ» و«على» و«في» مُتَعَلِّقاتٌ بـ «تأتي»، ويجوزُ تعَلُّقُ «في» بـ «حسَبِ».

١٥٧- يَا رَبِّ واجْعَلْ رَجَـــائِي غَيْرَ مُنْعَكِسٍ   لَدَيْكَ واجْعَلْ حِسَـــابِي غَيْرَ مُنْخَرِمِ

يا ربِّ -فيه ما مَرَّ في «يا نفْسُ»[2]- ارْحَمْني **واجْعَلْ رجائي** لِلرَّحْمَةِ **غيرَ مُنْعَكِسٍ** أي خائِبٍ **لديكَ**، أي عِنْدَكَ، وهو مُتَعَلِّقٌ بـ «اجْعَلْ» أو بـ «مُنْعَكِس».

واجْعَلْ حِسابي أي ما حسَبْتَهُ وقدَّرْتَهُ مِن العَفْوِ **غيرَ مُنْخَرِمٍ**، أي غيرَ مُنْقَطِعٍ عِنْدَكَ، بِأنْ يحْصُلَ المَرْجوُّ والمَحْسوبُ مِن عفوِ ذُنوبي كبيرِها وصَغيرِها.

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى ﴿ويحذركم الله نفسه﴾، ورواه مسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب الحث على ذكر الله تعالى، بسنديهما عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: يقول الله تعالى: (أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم، وإن تقرب إليّ بشبر تقربت إليه ذراعا، وإن تقرب إليَّ ذراعا تقربت إليه باعا، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة).
ومن حسن الظن بالله ما أورده الحاكم في المستدرك بسنده عن جابر بن عبد الله أن رجلا جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: واذنوباه واذنوباه، فقال هذا القول مرتين أو ثلاثا، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: (قل: اللهم مغفرتك أوسع من ذنوبي ورحمتك أرجى عندي من عملي). وصنيع الإمام البوصيري في هذا البيت يندرج تحت هذا الباب، على الرغم من أنه من العلماء العاملين والأولياء الصالحين، تأدبا مع الله عز وجل، وهضما لنفسه واعترافا بتقصيره.

(٢) البيت قبل السابق، رقم ١٥٥.

١٥٨- والطُفْ بِعَبْدِكَ في الدَّارَيْنِ، إنَّ لَهُ   صَبْراً مَتــــى تَدْعُهُ الأَهْوَالُ يَنْهَزِمِ

والطُفْ أي «وارْفُقْ» -كما في نُسْخَةٍ- **بِعَبْدِكَ**، يُريدُ نفسَهُ، **في الدَّارين** أي الدُّنيا والآخِرَةِ، فيما قُدِّرَ عليه فيهما مِن المؤلِماتِ بتَخْفيفِها.

إنَّ لهُ صَبراً على ما يُصيبُهُ فيهما، لكِنْ **متى تدْعُهُ الأهوالُ** أي تطلُبُه، وهي الأمورُ المَخوفَةُ[1] **ينْهَزِمْ** صَبْرُه ولا يثْبُتُ، فيهْلِكُ هو، وباللُّطْفِ يندَفِعُ الهَلاكُ، ويدُلُّ لِمَطْلوبيَّةِ الرِّفْقِ[2] خبَرُ البُخاري: إنَّ اللهَ يُحِبُّ الرِّفْقَ في الأَمْرِ كُلِّه[3].

١٥٩- وأْذَنْ لِسُحْبِ صلاةٍ مِنْكَ دائِمَــــةٍ   عَلى النَّبيِّ بِمُنْهَلٍّ ومُنْسَجِــــمِ

١٦٠- ما رَنَّحَتْ عَذَبَاتِ البَـــانِ رِيحُ صَباً   وأَطْرَبَ العيسَ حَادي العيسِ بالنَّغَمِ

وأْذَنْ أي أبِحْ[4]، **لِسُحْبِ صلاةٍ مِنْكَ دائِمَةٍ على النبيِّ** مُحَمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم **بِمُنْهَلٍّ**، أي بِمَطَرٍ شديدٍ، **ومُنْسَجِمٍ** أي مطَرٍ غيرِ شديدٍ. والسُحْبُ -بإسْكانِ الحاءِ لُغَةٌ في ضمِها- جمْعُ «سحابٍ»، وهو الغَيْمُ، ولامُ «لِسُحْبِ» للتَّعديةِ، و «مِنْكَ دائِمَةٍ» صفتانِ لـ «صلاةٍ»، ويجوزُ جعْلُ «دائِمَةٍ» صفَةً لـ «سُحْبِ»، و «بِمُنْهَلٍّ» مُتَعَلِّقٌ بـ «أْذَنْ»، فباؤُهُ للتَّعْديةِ، وقيلَ صِفَةٌ لـ «سُحْبِ» فباؤُهُ للمُصاحَبَةِ، ويتَعَلَّقُ بـ «أْذَنْ» أيضاً.

---

(١) مَخُوف: مفعول من الخوف، بمعنى مُخيف.

(٢) باعتبار اللفظ في النسخة التي جاء فيها البيت بلفظ «وارفق بعبدك في الدارين»، وباعتبار المعنى في النسخة التي اعتمدها الشارح، والتي فيها «والطف بعبدك ...الخ».

(٣) صحيح البخاري: كتاب الأدب - باب الرفق في الأمر كله.

(٤) يقال «أذنت له بكذا» أي أطلقته يفعله.

ما رنَّحَتْ -بنونٍ وحاءٍ مُهْمَلَةٍ- أي ميَّلَتْ، و«ما» مصْدَريةٌ ظرْفيةٌ، **عذَباتِ البانِ** -بذالٍ مُعْجَمَةٍ- أي أغْصانَهُ **ريحُ صَباً**، وهي التي تأتي من المَشْرقِ صوبَ بابِ الكَعْبَةِ فكأنَّها تصْبو إليها، أي تميلُ، **وأطْرَبَ العيسَ** وهي من كرامِ الإبِلِ، بيضٌ يُخالِطُها شُقْرَةٌ -وأَصْلُ عينِهِ الضَمُّ، كُسِرَتْ لسُكونِ الياءِ بعْدَها ومُفْرَدُهُ «أعيسُ» للذَّكَرِ، ويُقالُ للأُنْثى «عيساءُ»- **حادي العيسِ** وهُمْ أصْحابُ الإبِلِ في السَّفَرِ **بالنَّغَمِ** -بفَتْحِ النونِ- أي بالصَّوتِ الحَسَنِ.

و«حادي» فاعِل «أطْرَبَ»، مِن «حدَا يحْدو حدواً» وهو سوقُ الإبِلِ والغِناءُ لها فتَطْرَبُ، والطَّرَبُ خِفَّةٌ تنْشَأُ عن سُرورٍ، مُقْتَضيةٌ للهَزَّةِ والحَرَكَةِ[1].

والحاصِلُ أنَّهُ شبَّهَ الصَّلاةَ على النبيِّ صلى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ، التي يطْلُبُ عُمومَها في الأوقاتِ بالسُحُبِ التي تعُمُّ الآفاقَ، وسَأَلَ اللهَ أنْ يأذَنْ لها أنْ تدومَ على النبيِّ صلى الله عليه وسلم بصَلاةٍ، مُدَّةَ التَّرنيحِ والإطْرابِ، فما ذكَرَهُ مِن أنَّ للصَّلاةِ المَذْكورةِ سُحْباً وسأَلَ الله تعالى إمْطارَها مُدَّةَ ما ذكَرَ، مِن تخيُّلاتِ الشُّعراءِ.

وحُكي عنه رحِمه الله تعالى أنَّهُ قالَ: حصَلَ لي خلْطٌ فالِجٌ[2] أبْطَلَ نِصْفي، فأنْشَأْتُ هذهِ القَصيدَةَ ونِمْتُ، فرأيتُ النبَّيَّ صلى اللهُ عليهِ وسلَّمَ، فمَسَحَ بيدِهِ المُباركَةِ عليَّ، فعُوفيتُ مِن وقْتي، وخَرَجْتُ أوَّلَ النَّهارِ، فلَقِيني بعْضُ الفُقَراءِ، وسَأَلَني هذهِ القَصيدَةَ، ولَمْ أكُنْ أعْلَمْتُ بها أحَداً، وقالَ لي: سمِعْتُها البارِحَةَ تُنْشَدُ بينَ يدي النبي صلى اللهُ عليه وسَلَّمَ، وهو يتَمايلُ تمايُلَ القَضيبِ، فأعْطيتُها لهُ، فاشْتَهَرَتْ حتى صارَتْ يُتَبَرَكُ بها. قالَ: ورَأى فُلانٌ في النَّومِ

---

(١) من ذلك ما أورده البخاري ومسلم وغيرهما أن رجلا يقال له أَنْجَشَة كان يسوق بأمهات المؤمنين ويحدو للإبل أثناء سيره، فكان إذا حدا أعنقت الإبل، أي أسرعت، فقال له صلى الله عليه وسلم: «ارفق يا أنجشة ويحك بالقوارير».

(٢) الفالِجُ: شلل يصيب أحد شقي الجسم، وهو المسمى في الطب الحديث بالشلل النصفي.

-وقَدْ أشْرَفَ على العَمى- قائلاً يقولُ لهُ: اجْعَلْ البُرْدَةَ على عينيكَ تفقْ، فحَصَّلَها وجَعَلَها على عينيهِ، وقُرِئَتْ عليهِ فعُوفي لوقْتِه.

وكأَنَّ النَّاظِمَ أشارَ بِالعَذَباتِ إلى عذَبَةِ النبي صلى اللهُ عليه وسَلَّمَ لِتَمايُلِها بِتَمايُلِه عِنْدَ سماعِه المَدْحَ، وبِالبانِ إلى ذاتِه لِطيبِ رائِحَتِها، كطيبِ رائِحَةِ ما يُسْتَخْرَجُ مِن البانِ، وبِالعيسِ إلى أُمَّتِه لِطَرَبِهم عِنْدَ سماعِهم ما ذُكِرَ، كطَرَبِ العيسِ المُسْتَلْزِمِ لِسُرْعَةِ سيرِها عِندَ سماعِ صوتِ حادِيها، واللهُ أعْلَم.

تم شرح البردة لشيخ الإسلام زكريا الأنصاري
بحمد اللّٰه تعالى وعونه.

*****

فهرس الكتاب

هذا الكتاب

لم يشتهر أحد في مجال مدح خير البرية صلى الله عليه وسلم، مثلما اشتهر الإمام البوصيري صاحب البردة الشهيرة التي فاقت شهرتها شهرة صاحبها، والتي تعتبر من الفرائد في مدحه صلى الله عليه وسلم. وقد اشتملت «البردة» على جمل من صفاته ومعجزاته وسيرته وأخلاقه صلى الله عليه وسلم، فكان لها عظيم الأثر في تعريف جماهير المسلمين بسيرته صلى الله عليه وسلم وشمائله، وحرص لذلك علماء الأمة على شرحها وبيان معانيها.

وفي هذا الشرح الماتع للقصيدة، حرص شيخ الإسلام القاضي زكريا الأنصاري الشافعي الأزهري على بيان ما في أبيات البردة من براعة لغوية، وعلى التأصيل الشرعي لما اشتملت عليه من معان، فجاء شرحه -على اختصاره- حاويا للعديد من الإشارات النحوية والبلاغية، والكثير من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية وأقوال العلماء.

اقرأ في هذه السلسلة أيضا







خير جليس في الزمان كتاب